297.56
I139tA

الرسائل النادرة

٣ - تذكرة ابن حمدون

السياسة والآداب الملكية

مكتبة الخانجي
لاصحابها أولاد محمد أمين الخانجي
بشارع عبد العزيز بمصر
صندوق البوستة رقم ١٩٢٥

★ ★ ★ ★

طبعة أولى
١٣٤٥ هـ - ١٩٢٧ م

(حقوق الطبع محفوظة)

49581

مطبعة النهضة بشارع عبد العزيز بمصر
خلف عمر افندي

١
Cat. July 1934
Carnegie

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

« حقاً إن الاقبال الصادق على الجديد ما كان »
« ليحول دون احترام القديم والانتفاع به. »

منصور فهمي

4358

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم على ما وهبتنا من قوة وجلد، وعلى ما أسبغته علينا من نعمة الثبات فى مشروع اعتزمنا على المضى فيه بحولك ومشيئتك.

وبعد، هذه هى الثمرة الثالثة من سلسلة (الرسائل النادرة) التي وعدنا أن نتحف بها الاخصاء من أهل الأدب العربى، الفينة بعد الفينة نقدمها اليهم هدية المقلّ المخلص، ليشفع لنا الاخلاص فى الاقلال والله ولى التوفيق؟

بيننا وبين قراء الرسائل

ما كدنا نظهر الرسالتين الأولى والثانية من هذه السلسلة ، حتى تهافتت علينا مكاتبات عديدة من حضرات الأدباء الافاضل ، فى سوريا وفلسطين والعراق والهند وتونس ومراكش وسائر الامصار العربية ، التى اشتهرت فيها مطبوعات الوالد ، متعنا الله بحياته الطيبة ، تعرب عن تهنئتنا بالعودة إلى حياة الجهاد فى سبيل احياء مآثر السلف ، وتنم عن روح التشجيع فيما اعتزمنا عليه فى مشروعنا الجديد . وقد تقدم الينا كذلك بعض الأصدقاء فى مصر يمدوننا بالنصح والملاحظات بشأن الرسائل . وتقدم الينا فريق آخر يطلب منا أن نصرف جهودنا إلى الجديد فقط من المطبوعات العصرية لنتمشى مع روح التجديد السائرة فى كل مرافق الحياة .

نقدم شكرنا وامتناننا للمهنئين والمشجعين ونعدهم بأننا سنبذل بعون الله جهدنا لنكون عند حسن ظنهم فينا . أما كلمتنا الى الاصدقاء الذين يريدون توجيه جهودنا الى الجديد فقط فاننا مع تقديرنا لرأيهم نجيبهم بالكلمة الذهبية التى قرأناها لفيلسوفنا الاجتماعى الفاضل الدكتور منصور فهمى في نظرة من نظراته الصادقة التى يتحفنا بها من حين لآخر فى اسبوعيات الاهرام الغراء . وقد بلغ من اعجابنا بتلك الكلمة أن زينا بها صدر هذه الرسالة دون استئذان من حضرته ، لعلمنا أن كلمات الافذاذ من رجال كل عصر ملك مشاع للجميع يغترف الناس من مناهلها هنيئاً مريئاً فى كل حين وآن .

بيننا وبين الاستاذ الراجكوني

بقي لنا أن نقول كلمتنا في نقد نشرته مجلة الزهراء في عددها الصادر في شعبان ١٣٤٥ هجرية بأمضاء الاستاذ الفاضل عبد العزيز الميمني المدرس بكلية عليكرة بالهند: فقد زعم حضرته أننا كنا واهمين فيما ذكرناه في مقدمتنا التي صدرنا بها الرسالة الأولى من أن (أعلام الكلام) ومقامة الانتقاد كتاب واحد.

ولكننا نأخذ عليه بدورنا أنه حام حول الموضوع دون أن يثبت صدق دعواه فيما ذهب اليه من أننا واهمون. انما نتحدى حضرته ونفخر باكتشافنا هذا إلى أن يبين لنا بالدليل الثابت أننا واهمون حقا. أما أدلتنا فهي

(١) توجد كتب كثيرة سماها مصنفوها باسمين مختلفين. وقد اعتنى حضرة الاستاذ العلامة سعادة أحمد تيمور باشا بوضع فهرس خاص لمصنفات الموجودة في مكتبته، ذات اسمين مختلفين. فلماذا لا تكون هذه الرسالة من هذا القبيل؟

(٢) هناك كتب أخرى يسميها المؤلف باسم من الاسماء ثم تتداولها الأيدي باسم آخر. وفي مكتبة سعادة احمد طلعت بك النسخة الأصلية لمقامات الحريري بخط نفس الحريري واسمها المقامات السروجية.

ومن غرائب الصدف أننا ونحن نقلب في مجلة الزهراء رأينا توقيع حضرته في ذيل مقالته (عبد العزيز الميمني) وفي الفهرس المطبوع على الغلاف (أعلام الكلام ومقامة الانتقاد للراجكوني).

واذا ظلت رسائل الاستاذ ومقالاته تكتب بتوقيعين مختلفين على

هذا المنوال فقد يأتى وقت يظنون الناس فيه أن الراجكونى هو غير الميمنى ولذلك فليس من المستبعد أن الناس بمضى الزمن يذهبون الى أن أعلام الكلام هو خلاف رسائل الانتقاد الى أن قيض الله لنا هذا الاكتشاف

(٣) النسخة التى اعتمدنا عليها ملوكية مخدومة بدليل ما عليها من الأختام والتوقيعات التى تفيد أنها كانت مكتوبة برسم أمير من الامراء. لا سيما وانها مكتوبة بخط عالم من العلماء الذين ذكرهم المحبى فى خلاصة الاثر. وهذه مزية تجعل للنسخة ترجيحا فى نظرنا على النسختين القديمتين اللتين نقلت عنهما النسخة التونسية الموسومة برسائل الانتقاد، فان القدم وان كان فى حد ذاته مزية إلا أن المصنفات التى يكتبها العلماء المشهورون ترجح على الدوام لأن العالم يتحرى الصحة والتثبت فيما ينسخه وفى يقيننا أن حضرة الناقد اذا أخذ فى نسخ كتاب من كتب الاقدمين يكون ما نسخه أرجح من أى نسخة أخرى مكتوبة بقلم ناسخ عادى مهما كانت قديمة، لأن أكبر ظننا فى فضله وأدبه أنه يتحرى الصدق والصواب فيما ينسخه

التعريف بالمؤلف والكتاب

هذه الرسالة هى الباب الثانى أو القسم الثانى من تذكرة ابن حمدون وتذكرة ابن حمدون هذه، من المجاميع الشهيرة التى ورد ذكرها فى كثير من كتب الأدب، وفى كثير من المعاجم التى تعنى بذكر أشهر المصنفين والمؤلفين.

ومؤلفها الفاضل هو: كافى الكفاة، أبو المعالى، بهاء الدين محمد بن أبى سعد الحسن بن محمد بن على بن حمدون، البغدادى الكاتب ولد فى شهر رجب سنة ٤٩٥ هجرية ببغداد. وكان فاضلا، ذا معرفة تامة بالادب

والكتابة ، من بيت مشهور بالرياسة والفضل ، هو وأبوه وأخواه : أبو نصر وأبو المظفر .

سمع من أبي القاسم اسماعيل بن الفضل الجرجاني وغيره وكان صاحب ديوان الزمام المستنجدي ، وكان كلفا باقتناء الحمد وابتناء المجد . وفيه فضل ونبل ، وله على أهل الادب ظل . وعند ما ألف التذكرة ذكر فيها حكايات نقلها من التواريخ فتوهم الامام المستنجد أنه يعرض بحكاياته تلك بالدولة ، ويقدح فيها ، فأخذه من دست منصبه وحبسه . وما زال في حبسه الى أن مات في أوائل سنة ٥٦٢ هجرية ودفن بمقابر قريش ببغداد وكان أبوه من شيوخ الكتاب ، والعارفين بقواعد التصرف والحساب وله تصنيف في معرفة الاعمال .

أما التذكرة نفسها وهي التي اشتهر بها المؤلف وكانت سبب نكبته فقد جعلها خمسين باباً ، ضمن كل باب موضوعاً خاصا به ، بمقدمة مستقلة ، جمع ماشاءت له همته ، ضروباً من النوادر والسير ، وأفانين شتى من الامثال والاشعار والأخبار والحكم والأقوال ، حتى أصبحت موسوعة أدبية تضم بين جنبيها كل ما وصل اليه من طرائف الأدب . والنسخة التي اعتمدنا عليها في هذه الرسالة ، تفضل علينا بها حضرة صاحب العزة الفاضل نور الدين بك مصطفى ونسخة حضرته تشمل الأبواب الثلاثة الاولى من التذكرة . في الباب الاول منها نقص بمقدار نصف صفحة من الفاتحة ، ثم نقص قليل في نهاية الباب الثالث . ولذلك بدأنا في القسم الثاني مرجئين نشر البابين الآخرين الى فرصة أخرى . والباب الأول موضوعه (المواعظ والآداب الدينية) والباب الثالث موضوعه : (الشرف والرياسة)

وفى دار الكتب الملكية المصرية جزء من التذكرة يشتمل على الباب السابع والأربعين فى أنواع السير والاخبار وفنون الاشعار، والباب الثامن والاربعين فى النوادر والمجون. ونسخة نور الدين بك مصطفى مكتوبة بخط محمد بن أركماس الطويل اليشبكى فى تاريخ ٨٦٨ هجرية، أما نسخة دار الكتب المصرية فهى أقدم وعلى ظهر الورقة الاولى خطوط بعض الأفاضل بمطالعته والاستفادة منه أقدمها بخط داود بن الملك عمر كتبه فى شهر رجب سنة ٧٩٣ هجرية.

له ترجمة ن :

النجوم الزاهرة ن/ ٤ ٢٧٤

١

صفحة الشكر الخالد

وكما أثبتنا فى رسالتنا الأولى والثانية شكرنا الخالد وامتنانا لحضرة صاحب السعادة أحمد طلعت بك الأفخم الذى تفضل علينا بأعارة النسختين الأصليتين لأعلام الكلام وقراضة الذهب كذلك نحاول فى هذه الصفحات القلائل أن نفصح عن شكرنا وامتناننا لحضرة صاحب العزة نور الدين بك مصطفى بأن نزين مقدمة الرسالة الثالثة بلمعة من تاريخ حياته الطيبة الحافلة بجلائل الاعمال .

(حضرة صاحب العزة نور الدين بك مصطفى)

نشأته الأولى :

ولد صاحب الترجمة فى مدينة (أوخرى) من بلاد مكدونيا سنة ١٨٨٣ ونشأ نشأته الاولى فى تلك الربوع الجميلة الغنية بمناظرها الطبيعية فانطبعت فى مخيلته صور تلك المروج الخضراء والغابات الملتفة بالاشجار الشامخة بأنفها نحو العلاء ، والأنهار الفضية المتساقطة من أعالى الجبال كالبلور الصافى، مما كان لها أثر بين فى تكوين نفسيته لأنها صقلت ذهنه وشحذت قريحته وبطنت نفسه بتلك الأميال الروحية اللذيذة التى تظهر من حين لآخر فى أشعاره النفيسة التى يكتبها تارة بالفارسية وتارة بالعربية وأخرى بالتركية .

بعض صفاته

إن لنشأته الأولى أثراً آخرا لايقل أهمية عن الأثر الأول ، فقد نشأ حضرته بين قوم عرفوا بالأنفة والشمم ومضاء العزم والكرم والوفاء الى غير ذلك من الخلال النبيلة التى اشتهرت بها أمة الالبان، فنشأ أبى النفس، سخى الكف ، عالى الهمة ذا مروءة ووفاء

مزاجه : ولأزيد القراء بيانا فى صفات المترجم أقول : إنه عصبى المزاج نوعا ويدهشنى أن أرى ارتباطا كبيرا بين رقى الانسان وجهازه العصبى ، فحيثما أدرت الطرف وجدت أن السابقين فى الحياة هم العصبيون الذين تنفعل نفوسهم بملامسة الحوادث فيزداد احساسهم رقة . أليس عجبا أن القدرة الالهية لا تنتخب فى الغالب خيار الناس الا من ذوى الامزجة العصبية ، فهم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون. وهم السابقون فى

ميادين الحياة ، الوثابون الى الصفوف الامامية ، منهم الفليسوف الحكيم والعالم النابغة والمخترع الكبير والشاعر البليغ .

دراسته الاولى : وعندما أتم دراسته الابتدائية التحق بالمدرسة الاعدادية الشاهانية فى (مناستر) ومن ابتداء هذا التاريخ ، ابتدأت حبات الذكاء الكامنة فى تلك النفس العالية تظهر شيئاً فشيئاً حيث بز أقرانه فى العلوم والفنون التى كانت تلقى عليهم ومن ثم سافر الاستانة ، مركز المدارس العالية فى الممالك العثمانية والتحق بمدرسة الحقوق وما زال يضرب فى كل علم ، حتى أصاب من العلم أوفى حظ ومن الأدب أوفر نصيب ، فتعلم الفرنسية لغة الآداب وأتقن التركية لغته الاصلية اتقانا قلما يتفق لأديب تركى . وكذلك صرف همته لتعلم الفارسيه لغة الحكم والمواعظ ، والعربية لغة السحر والبيان حتى خرج الى ميدان العمل والحياة مثالا كاملا للعلم الناضج المقرون بحب العمل .

قدومه الى مصر : ليس فى بلاد الاسلام بلدة كمصر تضاهيها بنهضتها وتضارعها برجالها ، فهى الآن قطب رحى البلاد الاسلامية ، وكعبة آمال العلماء والافاضل فى كافة أقطار الاسلام .

ويظهر أن لمصر مغناطيس خاص بها ، يجذب اليها أفاضل أهل العلم والأدب من بلاد الشرق المجاورة لها ، وإنه لمن حسن مصر أن يفد عليها أمثال حضرة صاحب العزة المترجم ، فيفيضون على أبنائها من ثمار قرائحهم ويستفيدون من خيراتها ويفيدونها بعلمهم وعملهم . وبذلك يزيد عدد الأعضاء العاملين فى مصر ، الأمر الذي يأخذ بيدها إلى مناهج الخير وسبل الرقى . وأكبر دليل نقدمه اثباتا لدعوانا خزانة كتبه النفيسة وآثاره وما أثره

أما ما آثره فيكفيك أن تعلم انه أصبح بأدبه وخلقه من ذوى المكانة بين المصريين أنفسهم يعدونه منهم ويفسحون له المقام الاسمى فى مجالسهم الادبية وأنديتهم العلمية. فهو عضو فى مجلس ادارة الرابطة الشرقية وعضو فى المجمع اللغوى المصرى وفى جمعيات خيرية كثيرة

آثاره القلمية: إن صاحب الترجمة أحد أولئك الافراد القلائل الذين تدفعهم همتهم إلى تخطى ما تقف دونه نفوس العظماء ودليلنا على ذلك آثاره الجليلة وأعماله الخالدة وفى مقدمتها قاموس كبير فى اللغة العثمانية، يبحث عن أصول الكلمات فى هذه اللغة ويردها إلى العناصر الأصلية لها وهى التركية والفارسية والعربية، معززة بالشواهد الثابتة والادلة الناصعة مما يدل على فضل المؤلف فى العلم والأدب وتمكنه تماما من هذه اللغات. وقد أتم من هذا القاموس جزءاً عظيما يقع فى عشر مجلدات قضى فى سبيل جمعه والمثابرة على تأليفه ما يقرب من خمس عشر سنة وله غير هذا الأثر الخالد مجموعة أشعار كبيرة فى اللغات الثلاث التى يتقنها وكذا مجموعة أشعار أخرى سماها « اقتباساتم » . وقد نقل إلى اللغة العربية قسما من رباعيات عمر الخيام نظما وكذا (ألباب الحقيقة) وترجم الى اللغة التركية أشعار بيدل الفارسية كما نقل إلى اللغة التركية طائفة كبيرة من لزوميات المعري نظما وله غير ذلك رسائل عديدة منها رسالة باسم (زهراء)

ومكتبة صاحب العزة نور الدين بك مصطفى تضم أمهات الكتب من كل فن وعلم ومطلب لأنه أراد أن يغنى بها عن الرجوع الى دار الكتب المصرية وهى مكتبة أديب جليل تظهر فى كل ناحية من نواحيها أثر الذوق وحسن الاختيار.

وناهيك بمجموعة تحتوى على نماذج من خطوط عشرات من سلاطين الشرق المجيدين فى فن الخط وقل أن يوجد خطاط ابتداء من ياقوت أشهر خطاطى القرن السادس حتى الجلال خاتمة خطاطى القرن الثالث عشر إلا وفى المكتبة أثر من آثاره. ففيها مثلاً نماذج من خط العماد مع أساتذته وتلامذته وأقرانه فى التعليم مما يصح أن تكون لوحدها مجموعه فنية قائمة بنفسها وكذا خطوط حمد الله الشهير بابن الشيخ والحافظ عثمان وشكر زاده والسلطان على وشاه محمود النيسابوري ومير على وغيرهم من أكابر فحول الخطاطين وبالاجمال فهى مجموعة نفيسة نفاخر بها أكبر متاحف العالم .

وفى المكتبة عدا ذلك مجموعة قيمة من الكتب المصورة والمذهبة. خذلك مثلا نسخة من عجائب المخلوقات للقزوينى مصور باللغة الفارسية وأخري مثلها باللغة التركية فانهما آية فى التصوير والتذهيب . كما يوجد فيها غير هذين الكتابين آثار عشرات من مشاهير مصورى الشرق بامضاءاتهم مما يزيدها نفاسة وقيمة .

وقد ضم حضرته منذ عهد قريب الى المكتبة كتاب الصور السماوية لأبى الفتح عبد الرحمن بن الحسين الصوفى أحد علماء القرن الخامس وهذه النسخة هى الوحيدة فى مكاتب القطر المصرى بل قل أن يوجد مثلها فى المكاتب الأوروبية أيضاً . وبهذه المناسبة أقول أن أحدهم عثر منذ أعوام على نسخة من هذا الكتاب وباعه لمتحف باريز بمبلغ طائل فرأت ادارة المتحف أن تلاطف البائع على هديته الشرقية الثمينة فأهدت اليه وسام الافتخار . ومن مميزات مكتبته العامرة طائفة صالحة من الكتب العربية

النادرة ، نخص منها بالذكر مجموعة من مؤلفات الشيخ محى الدين بن عربى المعروف بالشيخ الاكبر تبلغ نحو مائة وخمسين مؤلفا وكذلك مجموعة أخرى تحتوى على أربعين رسالة تأليف عمر الخيام والرازى وأمثالها من أقطاب الحكمة ومشاهير فلاسفة الاسلام الذين أشرقت أنوار هدايتهم فى القرنين الخامس والسادس .

وتوجد بها أيضاً نسخة كاملة من كتاب الشفا لابن سينا وهو دائرة معارف اسلامية تبحث عن أهم أركان العلوم والفلسفة من الهيات ورياضيات وطبيعيات وقل أن توجد نسخة من هذا الكتاب حتى أن دار الكتب المصرية اهتمت بنسخ صورة منه لتكملة النسخة الموجودة لديها وكذلك توجد نسخة من قانون ابن سينا ، ذلك الكتاب الضخم فى حجم صغير يوضع فى الجيب مكتوب فى القرن السادس للهجرة النبوية كما أنه يوجد لابن سينا عشرات المؤلفات فى مكتبته العامرة وكذلك مجموعة قيمة من كتب الكيمياء فى أيام جابر بن حيان حتى عهد الجلدكى خاتمة من كتبوا فى هذا الفن ؟

استلفات نظر

نحيط علم حضرات القراء الكرام اننا طبعنا كتاب « صيد الخاطر » للامام الجليل ، أبي الفرج ابن الجوزى ، وهو خواطر فى التربية النفسية والادبيات الخلقية ومباحث شافية فى الحياة الاجتماعية ، لا يستغنى عنها الطالب ، بعبارة واضحة وقلم بليغ وهو غرة مؤلفاته الشهيرة.

تحصلنا على أصله بعد طول البحث وقمنا بتصحيحة وطبعه على ورق صقيل فجاء بحمد الله وافيا بالمرام مفيدا للنشأة الحديثة كل الافادة وثمنه ٢٠ قرشا .

كما يوجد بالمكتبة الرسالة الاولى من الرسائل النادرة ، وهى اعلام الكلام لابن شرف القيروانى . والثانية ، وهى قراضة الذهب لابن رشيق القيروانى صاحب العمدة . وثمن كل منهما قرشان صاغا

وبالمكتبة جميع الكتب الادبية والتاريخية والدينية والمدرسية .

وبها قسم خاص لمبيع ومشترى الكتب الخطية الأثرية والمطبوعات النادرة ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مبدع الأشياء بمتقن فطرته، ومودعها لطائف حكمته، ومُصرِّف الاقدار على مشيئته، ومُدبّرها بقدرته، خلق خلقه أغياراً وأخيافاً[1]، ورتبهم منازلَ وأصنافاً، وجعل بعضهم لبعض سُخرياً، وفضلهم فى الرزق فكانوا فقيراً وغنياً، وأرضى كلاً بما قسم فسكنوا اليه متبوعاً وتبعاً، وشرع لهم فى دينه سياسةً أمرهم باتباعها شرعاً، حتى دانت الرعية للملوكها وقادتها، وأعطت طوعاً وكرهاً دليل مقادتها، فانتظم بذلك فيهم التدبير وتمّ، وجرى عليهم حكم القضاء فحتم.

أحمده على ما بطن من نعمه وظهر، وأشكر له على ما أعان من مواهبه وأسر، حمدَ راضٍ بما سن من فضله ويسّر، شاكر لما عمَّ من جوده ونشر. وأستمد منه صدق البصيرة فيما أدَّبنا به من الأمثال والحكمة، وحسن السريرة فيما ألزَمنا به من طاعة الولاة والأئمة، وأسأله الصلاة على نبيه خير البشر، خاتم الأنبياء والنُّذر[2]، وأقام فى أمته سائساً ومدبّرا، وداحضاً كيد الكفر وله مُدَمّراً، ومجاهداً فى دينه مُشمّراً، وأوجب عليهم استخلاف

---

(١) (هم أخياف) بصيغة الجمع: أى مختلفون. ومنها (اخوة أخياف) امهم واحدة والآباء شتى

(٢) جمع نذير

قائم من بعده احتياطاً لهم ونظراً ، وجمع بذلك أمرهم فلم يجعله همَلاً ولا نُشراً [١] ، وعلى آله وصحبه الناطقين برشد الحكم وصوابه .

(أما بعد) فهذا الكتاب الثانى فى الآداب والسياسة الدنيوية ، ورسوم الملوك والرعية ، يشتمل على بدائع الحكم ، وفوائد الادب ، التى نطق بها العلماء والحكماء ضياءً للقلوب وشفاء للألباب ، وأصناف السياسة التى هى قوام العالم ، وبها انتظام مصالحهم ، وما يلزم منها طبقات الناس على اختلافها وتفوعها ، وما جاء فى ذلك من تمثل الحكماء ، وأخبار ولاة الامور فى آدابهم وسياستهم ، ومن تلاهم من أتباعهم وغيرهم . وهو ستة فصول :

الفصل الأول : الحكم والآداب التى نطق بها العلماء تهذيباً للنفوس يشترك فيها السائس والمسوس

الفصل الثانى : السياسة والآداب الملكية ، ومايجب عليهم من حقوق الرعية ويلزمهم من تَقَبُّل الأخلاق المرضية .

الفصل الثالث : سياسة وزراء الملوك وأتباع السلطان وأتباعهم على اختلافهم .

الفصل الرابع : الآداب والسياسة التى تصلح للجمهور .

الفصل الخامس : أخبار فى السياسة والآداب يُقتدى بها ، وتكون مثالاً لمن طلبها .

الفصل السادس : نوادر تتعلق بهذا الباب على قلتها فيه وبعدها عنه .

---

(١) نشر الخشب نحتَه ونشر الشىء فرقه

تمهيد

قد حوى كتاب الله سبحانه وتعالى من فنون السياسة وأقسامها ما يغنى مُتدبِّرُه، ويكفى متأمله: كالقصاص الذى جعل لنا فيه الحياة، والحدود التى عصم بها الأنفس والأموال والأعراض من تسرع الجناة، والزكاة العائدة بفضل الأغنياء على الفقراء، مِنَّةً منه ليجعلها فيما أنزل عليهم من رزقه شركاء، وكالطاعة المفترضة على الرعية للرعاة، والمعدلة الموجبة لهم على الولاة، وكحقوق النساء فى القسمة والتعديل على الرجال وما يلزمهنَّ لهم من حفظ الفروج ولزوم الحِجال (١)، وغير ذلك مما يخرج عن هذا الكتاب، ولا يليق إيراده به.

وهو بحر الحكمة التى جعلها شفاءً للأسقام والأوصاب، وجلاءً للأفهام والألباب. لا يُدرك قراره، ولا تحصى آثاره، فمن الآيات التى فيها أدب يُتَّبعُ، قوله عز وجل: «يابنى أقم الصلاة، وأمر بالمعروف، وانْهَ عن المنكر، واصبرْ نفسك على ما أصابك، إنَّ ذلك من عزم الأمور. ولا تُصَعِّرْ خدَّك (٢) للناس. ولا تمشِ فى الأرض مَرَحاً، إنَّ الله لا يحب كل مختالٍ فخور. واقصِد فى مَشْيِك، واغضُضْ من صوتك، إنَّ أنكرَ الأصوات لصوتُ الحمير».

وقوله عز وجل: «ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط» — «يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن، إن بعض

(١) مفرده حَجَلة: ستر العروس فى جوف البيت

(٢) صَعَّر خدَّه وصاعره وأصعره أماله عن النظر الى الناس تهاوناً من كبر

الظن إثم » — « يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم » — « يا أيها الذين آمنوا : إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تُصيبوا قوماً بجهالة فتُصبحوا على ما فعلتم نادمين » — « كل حزب بما لديهم فرحون » — « إن الله لا يحب كل مختال فخور » — « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » .

وتقصّي ذلك وترتيبُه ، يخرج الكتاب عن نمطه الموضوع له .

الفصل الاول

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الحكمه ضالّة المؤمن » . وقال على بن ابى طالب كرم الله وجهه : « لكل جواد كبوة ، ولكل حليم هفوة ولكل نفس مَلّة ، فاطلبوا لها طرائف الحكمة » . وقال كرم الله وجهه « الفكر يورّث نوراً ، والغفلة ظُلمة ، والجهالة ضلالة » . وقال ابن مسعود رضى الله عنه : « العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شىء أحسنه » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا الى من تحتكم ، ولا تنظروا الى من فوقكم » . وقال صلى الله عليه وسلم : « جُبلت القلوب على حُبِّ من أحسن اليها وبغضِ من أساء اليها »

ومن كلامه عليه السلام :

كَرَمُ الرجل دينه ، ومروءته عقله ، وحَسَبُه عمله — خير الأمور أوساطها — كلٌّ ميسَّرٌ لما خلق له — زُرْ غِبًّا تزدد حُباً — الوحدة خير من جليس السوء — البركة فى الحركة — بُلّوا[1] أرحامكم ولو بسلام — من كثر سواد قوم فهو منهم — ماقلّ وكفى خير مما كثر وألهى — ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ وانما الغنى غنى النفس . ويقارب هذا المعني ، قول على بن ابى طالب عليه السلام : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يعظم حلمك ويكثر علمك » .

وقال أبو بكر رضى الله عنه : صنائع المعروف تقى مصارع السوء .

وقال على كرم الله وجهه : استغن عمن شئت فأنت نظيره ، واحتج

---

(١) بَلَّ رحمه أي قربه بلاً وبلالاً أى وَصَلَهُ ومعنى الحديث . نَدّوها بالصلة

الى من شئت فأنت أسيره ، وأفضل على من شئت فأنت أميره .

أخذ المعنى الأول، الشاعرُ فقال :

واذا ما الرجاء أسقط بين النـ ـاس فالناس كلُّهمُ أكفاء

قال لقمان لابنه : « ثلاثة لا يعرفون الا فى ثلاثة مواطن : لا يعرف الحليم الا عند الغضب ، ولا الشجاع الا فى الحرب اذا لاقى الأقران ، ولا أخوك الا عند حاجتك اليه » .

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : أحبكم الينا قبل أن نخبُرَكم ، أحسنكم صمتاً ، فاذا تكلم ، فأثبتكم منطقاً ، فاذا اختبرناكم ، فأحسنكم فعلا.

(وفي رواية) أحبكم الينا ، أحسنكم إسماً ، فاذا رأيناكم ، فأجملكم منظراً ، فاذا اختبرناكم ، فأحسنكم مخبراً .

من كلام الجاحظ وينسب الى غيره : خير الدنيا والآخرة ، التقوى والغنى ، وشر الدنيا والآخرة ، الفقر والفجور .

قال الحارث بن أسد المحاسبى : الظالم نادم . وان مدحه الناس ، والمظلوم سالم وان ذمه الناس ، والقانع غنى وان جاع ، والحريص فقير وان ملك .

وقال يحيى بن مُعاذ الرازى : لا يعجبك حلم أمرىء حتى يغضب ، ولا أمانته حتى يطمع ، فانك لا تدرى على أى شقيه يقع .

خطب علىٌّ عليه السلام يوماً ، فقال فى خطبته :

« وأعجب ما فى الانسان قلبه ، وله موادُّ من الحكمة وأضداد من خلافها ، فان سنح له الرجاء ، هاج به الطمع ، وان عرض له الغضب ، اشتد به الغيظ ، وان أُسعد بالرضى ، نسى التحفظ ، وإن نالة الخوف

أشغله الحزن ، وان أصابته مصيبة قصمه الجزع ، وان أفاد مالاً ، أطغاه الغنى ، وان عضّته فاقة ، شغله البلاء ، وان جَهِد به الجوع ، أقعده الضعف ، فكل تقصير به مضر ، وكل افراط له مفسد » .

ومن كلام له ، كرم الله وجهه : « فرض الله الايمان تطهيراً من الشّرك ، والصلاة تنزيهاً من الكبر ، والزكاة سبباً للرزق ، والصيام ابتلاءً لاخلاص الخلق ، والحج تقوية للبدن ، والجهادَ عِزًّا للاسلام ، والأمر بالمعروف مصلحةً للعوام ، والنهى عن المنكر ردعاً للسفهاء ، وصلة الرحم منماةً للعدد ، والقصاص حقناً للدماء ، واقامة الحدود إعظاماً للمحارم ، وتركَ شرب الخمر تحصيناً للعقل ، ومجانبة السَّرِقة إيجاباً للعفة ، وترك الزنا تصحيحاً للنسب ، وترك اللواط تكثيراً للنسل ، والشهاداتِ استظهاراً على المجاحدات ، وترك الكذب تشريفاً للصدق ، والسِّلْمَ أماناً من المخاوف ، (والأمانة) [1] نظاما للأُمة ، والطاعة تعظيما للامانة » .

وقال ، كرم الله وجهه : صديق الجاهل فى تعب .

وقال عليه السلام : استدلَّ على ما لم يكن بما قد كان ، فان الأمور أشباه . من تعدَّى الحق ، ضاق مذهبه . من اقتصر على قدره ، كان أبقى له . هلك امرؤ لم يعرف قدره . المرء مخبوءٌ تحت لسانه . قيمة كل امرىء مايحسنه ، بقية السيف أبقى عدداً وأكثر ولداً . ربما أخطأ البصير قصده . وأصاب الأعمى رشده . قطيعة الجاهل تعدِلُ صلة العاقل . اذا تغيَّر السلطان تغير الزمان . نِعْمَ طاردُ الهَمِّ اليقين !

---

(١) هكذا فى الأصل وصحتها (الامامة) وبذلك ينتظم سياق الحديث .

قيل لبعض العلماء : من أسوأُ الناس حالاً ؟ قال : من قويت شهوته وبَعُدت همته ، واتسعت معرفته ، وضاقت مقدرته .

قال يحيى بن طالب :

اذا أنت لم تفكر لنفسك خالياً أحاط بك المكروه من حيث لا تدرى

وقال قيس بن الخطيم :

وإنى لأغنى النفس عن متكلّفٍ يرى الناس ضُلاّلاً ، وليس بمُهْتد
وما المال والأخلاق إلا مُعَارَةٌ فما استطعتَ من معروفها فتَزَوّدَ
متى ما تَقِدْ بالباطلِ الحقّ ، يأبَهُ وإن قُدْتَ بالحقّ الرواسى ، تَنْقَدَ
اذا ما أتيت الأمر من غير بابه ضَلَلْتَ وإن تدخل من الباب تهتدى

قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : ان كان الشغل محمدة ، فانّ الفراغ مفسدة .

قال سقراط : السبب الذى به أدرك العاجز حاجته ، هو الذى أقعد الحازم عن طِلْبته .

وقال فرفوريوس : لو تميزت الاشياء بأشكالها ، لكان الكذب مع الجبن ، والصدقُ مع الشجاعة ، والراحة مع اليأس ، والتعب مع الطمع ، والحرمان مع الحرص ، والعز مع القناعة والأمن مع العفاف ، والسلامة مع الوِحْدَة . وقال أيضا : لا يُرفع أحد فوق درجته إلا فَسَدَ ، ألا ترى أن دودة الخلّ اذا جُعلت فى العسل كيف تموت !

وقال آخر : السَّهر ألذ للمنام ، كما أن الجوعَ أزيدُ فى طيب الطعام ، وهذا مُطرد فى كل نعمة تزداد طيباً وموقعاً اذا جاءت بعد ضدها . وقال

حكيم من اليونانيين: « السعادات كلها فى سبعة أشكال؛ حسن الصورة، وصحة الجسم، وطول العمر، وكثرة العلم، وسعة ذات اليد، وطيب الذكر والتمكن من الصديق والعدو.

وقال معاوية: الدنيا بحذافيرها، الخفض والدَّعة.

وقال بعض الادباء، وقد سئل عن العيش، فقال: العيش فى الغنى فأنى رأيت الفقير لا يلتذ بعيش أبداً. قال: زدنى قال: الصحة فأنى رأيت المريض لا يلتذ بعيش أبداً. قال: زدنى، قال: الأمن، فأني رأيت الخائف لا يلتذ بعيش أبدا. قال: زدنى، قال: لا أجد مزيداً.

فهذا الكلام على كمال تقسيمه واستغراقه المعنى، إنما أخذه من كلام النبى صلى الله عليه وسلم، الذى هو أصل كل حكمة ومآلها: من أصبح آمنا فى سربه (١)، معافى فى بدنه، له قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.

قيل لسقراط: ما الشىء الذى لا يستغنى عنه؟ قال: التوفيق. قيل ولم لم تقل العقل؟ قال: العقل بما هو عقل لا يجدى عاجلاً أو آجلاً دون التوفيق الذى به يهتدى الى ثمرة العقل، ويُنال روحه والانتفاع به.

وقال صالح بن جَناح العبسى:

ألا إنما الانسان غِمدٌ لقلبه ولا خير فى غمد، اذا لم يكن نَصْلُ

قال فيلسوف: كثير من الامور لا تصلح الا بقرنائها، لا ينفع العلم

(١) فلان آمن فى سربه، أى فى نفسه وفى الاساس: « أى فى حرمه وعياله مستعار من سرب الظباء والبقر والقطا »

بغير ورع ، ولا الحفظ بغير عقل ، ولا الجمال بغير حلاوة ، ولا الحسب بغير أدب ، ولا السرور بغير أمن ، ولا الغنى بغير كفاية ، ولا الاجتهاد بغير توفيق .

وقال علي ، عليه السلام : من كشف ضُرَّه ، هانت عليه نفسه. ومن كلامه : الفقر يُخرس الفَطِنَ عن حُجته . المُقلُّ غريب في بلدته. العجز آفة . الورع جُنَّةٌ (١). نعم القرينُ الرضا . العلم وراثة كريمة. البشاشة حبال المودة اذا أقبلت الدنيا على أحد ، أعارته محاسن غيره ، واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه . ما أضمر أحدكم شيئا الا ظهر في فلتات لسانه وصفحات وجهه ـ وقد روي لنا هذا الكلام عن النبي صلى الله عليه وسلم ـ ومثله قول زهير :

ومهما تكن عند امرىء من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم

ومن كلامه ، كرم الله وجهه : إمش بدائك ما مشى بك. قلوب الرجال وحشية ، فمن تألَّفها بالاحسان ، أقبلت اليه . من حَذَّرك كمن بشرك . أوضع العلم ما وقف على اللسان ، وأرفعه ما ظهر في الجوارح والاركان. إن أولى الناس بالانبياء أعلمهم بما جاءوا به : ثم تلا « إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي الآية » ثم قال: ولي محمد من أطاع الله وأن بعدت لحمته، وإن عدو محمد من عصى الله وان قربت قرابته .

وقال في صفة الغوغاء : هم الذين اذا اجتمعوا ضروا ، واذا تفرقوا نفعوا . فقيل : قد علمنا مضرة اجتماعهم ، فما منفعة افتراقهم ؟ قال : يرجع

---

(١) الجنة : الوقاية

أصحاب المهن الى مهنهم ، فينتفع الناس بهم ، كرجوع البنّاء الى بنائه والنسّاج الى منسجه ، والخبّاز الى مخبزه .

ومن كلامه عليه السلام : من لان عوده ، كثفت أغصانه . فى تقلب الأحوال ، علم جواهر الرجال . من يَعط باليد القصيرة ، يُعط باليد الطويلة (معناه إن ما تنفقه فى سبيل الخير والبر وان كان يسيرا ، فان الله يجعل الجزاء عليه عظيما كثيرا) . المغتصب فى الدار ، رهن على خرابها . — وقد روى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم — اذا ازدحم الجواب خفى الصواب . الحظ يأتى من لا يأتيه . قليل تدوم عليه أرجى من كثير ملول.(١) كل معاجل يسأل الانظار ،(٢) وكل مؤجل يتعلل بالتسويف . كفى بالأجل حارسا !

وقال ، لسائل سأله عن معضلة : سل تفقهاً ، ولا تسأل تعنتاً ، فان الجاهل المتعلم شبيه بالعالم ، وإن العالم المتعنت شبيه بالجاهل .

وقال ، كرم الله وجهه : قيام الدنيا بأربعة : عالم يستعمل علمه ، وجاهل لا يستنكف من التعلم عنه . واذا بخل الغنى بماله ، شَرِهَ الفقير الى الحرام . ففسدت الدنيا بكثرة الجهال والفجار .

وقال ، كرم الله وجهه : الفقيه الذى لا يَقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤمنهم من مكر الله ، ولا يرخص لهم فى معاصى الله تعالى . لكل امرىء فى ماله شريكان ، الوارث والحوادث . صواب الرأى بالدول ، ويذهب بذهابها . العفاف زينة الفقر . الشكر زينة الغنى . من نظر فى عيب نفسه

---

(١) مل فى المشى أسرع والمعنى هنا قريب النفاد

(٢) الانظار الامهال وأنظره الدين أخره

اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضى برزق الله لم يحزن على ما فاته ، ومن سل سيف البغى قتل به ، ومن كابد الامور عطب ، ومن اقتحم اللُّجج غرق ، ومن دخل مداخل السوء اتهم ، ومن كثر كلامه كثر خطؤه ، ومن كثر خطؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار . من طلب شيئاً ، ناله أو بعضه .

وقال ، كرم الله وجهه : ألا إن من البلاء الفاقة ! وأشد من الفاقة مرض البدن ، وأشد من مرض البدن مرض القلب . ألا وإن من النعم سعة المال . وأفضل من سعة المال صحة البدن . وأفضل من صحة البدن تقوى القلب . المنية ولا الدنية . التعلل ولا التوسل .

وسئل : أيما أفضل ، العدل أم الجود ؟ فقال : العدل يضع الأمور مواضعها ، والجود يخرجها عن جهتها ، والعدل سائس عام ، والجود عارض خاص ، فالعدل أشرفهما وأفضلهما .

وقال كرم الله وجهه : يغلب المقدار على التقدير حتى تكون الآفة فى التدبير - وقد قارب ابن الرومى فى هذا المعنى ، فى قوله :

غلط الطبيب على غلطة مورد ... عجزت محالته عن الاصدار

والناس يلْحَون[1] الطبيب وانما ... غلط الطبيب اصابة الاقدار

وقال . اذا انقضت المدة كان الهلاك فى العدة

وروى أن يحيى بن خالد دخل الى الرشيد فى أول ما ابتدأت حاله فى الفساد ، فرآه متخليا فرجع ، فاستعاده الرشيد وقال : يا يحيى رأيتنى خاليا

---

(١) لحى الشجرة يلحيها لحياً قشرها ، ولحى فلانا : لامه وسبه وعابه

فاتهمتنى فقال : والله يا أمير المؤمنين ، ما اعتمدت إلا مسرّتك ولكن اذا انقضت المدة كان الحتف فى الحيلة .

قال عمرو بن مروان بن محمد : عَرَضَ أبى بظهر الكوفة ثمانين ألف عربى ، ثم قال ، بعد أن وثق فى نفسه بكثرة العَدَدِ والعُدَد : اذا انقضت المدة لم تغن العِدة ولا العُدة .

وقال على ، كرم الله وجهه : ربَّ مفتون بحسن القول فيه .

ومن كلامه عليه السلام : منهومان لا يشبعان ، طالب علم وطالب دنيا .

وقالت القدماء : الدنيا كالماء المالح ، متى يزدد صاحبه منه شربا ، يزدد عطشا وظمأ .

قال إبَرويز : انما الكلام أربعة ، سؤالك الشىء ، وسؤالك عن الشىء ، وأمرك بالشىء ، وخبرك عن الشىء . فهذه دعائم الكلام إن التُمِس لها خامس لم يوجد ، وإن نقص منها رابع لم تتم ، فاذا طلبت فاسجح[1] ، واذا أمرت فاحتم ، واذا خبَّرت فحقق ، واذا سألت فأوضح .

قال الاصمعى ، سمعت غريباً يقول : كما أن الصديق يحول بالجفاء عدواً ، كذلك العدو يحول بالصلة صديقاً .

وقال آخر : شر المال مالا ينفق منه ، وشر الاخوان الخاذل فى الشدائد ، وشر السلطان من خافه البرىء ، وشر البلاد ماليس فيه خصب ولا أمل .

قال أفلاطون : لا تجبروا أولادكم على آدابكم ، فانهم مخلوقون لزمان غير زمانكم . وقال : اذا أقبل الرئيس استجاد الصنائع ، واذا أدبر استفزه الأعداء . اذا خبث الزمان كسدت الفضائل ونفقت الرذائل ونفعت ،

(١) أى أحسن الطلب

فكان خوف الموسر أشد من خوف المعسر . اذا بلغ المرء من الدنيا فوق مقدار نفسه تنكّر على الناس . اذا استعمل الرئيس النفاق لمن دونه ضاعت عوارفه

قيل . أحق الناس بالهوان المُحَدِّث لمن لايسمع منه ، والداخل بين اثنين فى حديث لم يُدخلاه فيه ، وآتى دعوة لم يدع اليها . وطالب المعونة من عدوه ، والمتعمق فى أحواله . وقيل : الادب يزيد العاقل عقلا والاحمق شراً .

قال ابن مسعود : من كان كلامه لا يوافق فعله فانما يوبخ نفسه .

سئلت اعرابية ، ما السرور ؟ فقالت : كفاية ، ووطن ، وسلامة ، ومسكن .

رؤى انيساً وطارقاً ابنى جندل من رجال كلب ، وفدا الى ملك من ملوك غسّان ، وكان قد بلغه عنهما عقل ، وأحب أن يمتحنهما ، فقال : يا أنيس ، ما أنكأ الاشياء للقلوب ؟ قال : فقر مكب وصرع الى غير محب . قال ياطارق ما أضر الاشياء على الملوك ؟ قال : عدو تسرى مكايده ، وجليس يبت حبائله ،(١) وصديق يودك ظاهره ويغولك (٢) باطنه . قال : فما الداء العضال ؟ قال : ابن العم الحسود ، كالسبع الرصيد يُساء ان أثريت ويتبجّح ان اختبأت . قال : يا أنيس ، ما الشقاء العاجل ؟ قال : الخليلة الورهاء (٣) ، خطابها عُواء ورضاها بكاء ، وسخطها احتواء . قال : ياطارق ما شر مصحوب ؟ قال : اللسان الذى لايقيده الحجى ، ولا يردعه النهى . قال : يا أنيس ، ما الداء الذى لا شفاء له ؟ قال : الحسد الذى لاانقضاء له . قال : يا طارق ، ما الداء العياء

---

(١) يبت بمعنى يقطع

(٢) غاله أهلكه وأخذه من حيث لا يدرى

(٣) الورهاء الحمقاء

قال: البخل بالممكن الموجود، والأسف على الفايت المفقود. قال: يا أنيس ما العار الذى لا يرحض [١]؟ قال: اسلام الجار، والعجز عن حماية الذمار. قال: يا طارق ما أكرم الأخلاق؟ قال: احتمال العظائم، واجتناب المحارم. قال: يا طارق ما العزّ؟ قال: حَدَبُ [٢] العشير، وكثرة النفير، والمعاونة على القليل والخطير. قال: يا أنيس ما الكرم؟ قال: الوفاء بالذمم والبذل فى الأزَم [٣] قال: ياطارق ما الشجاعة؟ قال: دفاعك عمن لا يلزمك له زِمام، وإقدامك حين يُكره الاقدام. قال: يا أنيس ما أجلب الأشياء للمقت؟ قال: العُجب والخرق. فقال الملك: وأبيكما، لقد استمجدتما أدباً، وتروَّيتما لُبًّا. وأحسن صلتهما.

قال معاوية: آفة المروءة الكبر واخوان السوء، وآفة العلم النسيان، وآفة الحلم الذل، وآفة الجود السَّرَفُ، وآفة القصد البخل، وآفة المنطق الفُحش، وآفة اللُّبّ العُجب، وآفة الظَّرف الصلَف [٤]، وآفة الحياء الضعف وآفة الجَلَدَ الكسل، وآفة الرزانة الكبر، وآفة الصمت العِىّ.

قال عبد الملك بن مروان: أربعة لا يُستحيى من خدمتهم، السلطان والوالد والضيف والدابة. وقال: أطلبوا معيشة لا يقدر سلطان جائر على غصبها. قيل: وما هى؟ قال: الأدب. وكان يقول: اللحن هُجنة على الشريف، والعُجب آفة الرأى.

---

(١) رحض الثوب رحضاً غسله

(٢) حدب عليه: تعطف

(٣) الأزم جمع أزمة وهى الضائقة

(٤) صلف الرجل صلفا: تمدح بما ليس عنده أو جاوز قدر الظرف

قال سهل بن هارون : ليس الرَّيُّ عن التَّشافّ [١] . من عاش غير خامل المنزلة وأفضل على نفسه وأصحابه ، فهو وان قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه فى وَحدة وضيق ، وقل خيره على نفسه وعلى الناس ، فهو وإن طال عمره قصير العمر . قد يبلغ الخضمُ القَضَمَ [٢] ، ويركب الصعب من لا ذَلول له — والكلام الأخير من أمثال العرب — المعنى فى التشاف أن يشرب الرجل الشفافة كلها ، وهى بقية الماء فى الاناء . يقول قد يروى الشاربُ قبل بلوغ تلك . ومعنى المثلين الحض على الرضا بيسير الحاجة ، اذا أعوزه جليلها .

قال مسلمة بن عبد الملك : ما حمدت نفسى على ظفر ابتدأته بعجز ، ولا لمتها على مكروه ابتدأته بحزم . وقال : مروءتان ظاهرتان ، الرياش والفصاحة .

قال أبو العباس السفاح : اذا عظمت القدرة قَلَّت الشهوة ، وقَلَّ تبرع الا ومعه حق مُضاع . وكان يقول . ان المقدرة تُصَغِّر الأمنية ، لقد كنا نستكثر أموراً أصبحنا نستقلها لأقل من صحبنا . ثم يسجد شكرا

قال بعضهم ، أنشدت المعتضد :

وما الأدب الموروث لا دَرَّ دَرُّهُ اذا لم يؤَيِّدْهُ بآخر مكتسب ؟

فكان بعد ذلك اذا رأى هاشمياً لا أدب له ، ينشد البيت ويقول .

---

(١) تشاف مافى الاناء كله : شربه كله . والمعنى أن القدر الذى يسُر الشارب ليس مما يروى فكذلك الاستقصاء فى الامور

(٢) هكذا فى الأصل والمثل المشهور : يُبلغ الخضم بالقضم . أى الشبعة تبلغ بالاكل بأطراف الفم ، أى الغاية البعيدة تُدرك بالرفق

الآداب خير من الأنساب ، والأعمال خير من الأموال .

قال سعيد بن العاص : موطنان لا أعتذر فيهما من العيّ ، اذا سألت حاجةً لنفسي ، واذا كلمت جاهلاً . وقال : الولاية تُظهرُ المحاسن والمساوى.

قالت القدماء : الفاقة بلاء ، وقرب العدو بلاء ، وفراق الأحبة بلاء ، والسُّقم بلاء ، والهَرَمُ بلاء ، ورأس البلايا كلها الموت . نظر الى هذا المعنى عمران بن حطّان الخارجي ، فقال :

لا يُعجز الموتَ شيء دون خالقه ... والموت فانٍ ، اذا ما ناله الأجلُ
وكل كربٍ أمام الموت مُتّضعٌ ... للموت ، والموت فيما بعده جَلَلُ

الجاهل لايجد للبلاء مَسّاً ، كما لا يُسدى في الرخاء معروفاً ، ولا صَبْرَ له في أيام الشدة ، كما لا رَوِيّةَ له في أيام السلامة ، ولا يَصدق بالحق كما لا ينزع عن الكذب . اذا كان السخط عن علة ، كان الرضا مَرْجُوًّا ، واذا كان عن غير علة ، كان الرضا في مصدرها . والعلة لها وقوع وذهاب ، يوجد أحياناً ويُفقد أحياناً . والباطل قائم موجود ، لا يفقد على حال . ما أحسن ما لمح هذا المعنى العباس بن الأحنف ، فنقله الى الغزل واختصر اللفظ ! فقال :

لو كنتِ عانبةً لَسكّنَ عَبْرَتي ... أملي رضاكِ ، وزرتُ غير مُجانبِ
لكن مللتِ ، فلم تكن لي حيلة ... صَدُّ المَلول خلاف صَدِّ العاتبِ

وقالوا : لا خير في القول الا مع الفعل ، ولا في المنظر الا مع المخبر ، ولا في المال الا مع الجود ، ولا في الصديق الا مع الوفاء ، ولا في الفقه

الا مع الورع ، ولا فى الصدقة الا مع حسن النية ، ولا فى الحياة الا مع الصحة والأمن والسرور .

وقالوا : الموت فيما يجمُل ، خير من الحياة فيما يقبُح . نظر الى هذا المعنى بعض فتيان بنى أمية وهم يحاربون عبد الله بن على ، ورآه عبد الله مُجدّاً فى الحرب فأعطاه الأمان فلم يقبله وتقدم يقاتل ويقول ، والشعر لعقيل بن عُلفة المُرّى :

أَذُلُّ الحياة وعزُّ الممات ! وكُلاًّ أراه طعاماً وبيلاً
فان لم يكن غير إحداهما ، فسيراً الى الموت سيراً جميلا

قال رجل لهشام : يا أمير المؤمنين احفظ عنى أربعاً فيهن صلاح ملكك واستقامة رعيتك ، لا تَعِدَنَّ عِدَةً لا تثق من نفسك بانجازها ، ولا يغرنك المرتقى وان كان سهلاً اذا كان المنحَدَر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاءً فاحذر العواقب ، وللأمور مغبّات فكن على حذر .

قيل : أشياءُ ليس لها ثبات ولا تواصل ولا بقاء : - ظل الغمام ، وخُلّة الأشرار ، وعشق النساء ، والثناء الكاذب ، والمال الكثير .

قيل : من ابتُلىَ بمرض فى جسده ، أو بفراق أحبته واخوته ، أو بالغربة حيث لا يعرف بيتاً ولا مَظلاً ولا يرجو إياباً ، أو بفاقةٍ تضطره الى المسألة ، فالحياة له موت والموت له راحة .

قال عبدالله بن سالم : رأيت بالأنبار رجلاً من الصابئين ، وهم لا يؤمنون بعقاب ولا حساب ، فلم أر رجلاً أعقل ولا أزهد منه ، فقلت : فيم هذا الزهد فى الدنيا وأنت لا ترجو ثواباً ولا تخشى عقاباً ؟ قال : لأنعم منها ،

لأنى لا أرانى أصبت من الدنيا شيئاً الا دعانى أكثر منه ، فلما رأيت ذلك تنعمت بقطع الأسباب بينى وبينها .

قال بعض الزهاد : من عمل بالعافية فيمن دونه ، رزق العافية فيمن فوقه .

قيل لبعض الحكماء : ما الاشياء الناطقة الصامتة ؟ قال: الدلائل المخبرة والعبر الواعظة .

قال بطليموس الثانى : خذوا الدُّرَّ من البحر ، والذهب من الحجر ، والمسك من الفأرة ، والحكمة ممن قالها .

لكل حريق مُطفىء ؛ فالماء للنار ، والدواء للسم ، والصبر للحزن ، وزناد الحقد لايخبو أبداً .

أنشد المخبَّل :

وتقول عاذلتى ، وليس لها بغدٍ ولا ما بعده ، علم
ان الثراء هو الخلود ، وإنّ المرء يُكرب يومه العُدْم (١)
إنى وَجدُّك مايُخلّدُنى مائة يطير عفاؤها أدمُ (٢)
ولئن بنيت لى المُشقَّر فى هَضَب تقصُرُ دونه العُصُم (٣)
لِتَنفِيَنْ عنّى المَنِيَّةَ انّ الله ليس كحكمه حكم
إنى وجدت الأمر أرشده تقوى الاله وشرُّهُ الإثم

---

(١) العُدْم والعَدَم : الفقد وغلب على فقدان المال والفقر .
(٢) الأدم مايؤتدم به
(٣) يريد المناعة . والمشقر من القصور التى يضرب بها المثل

وقال المتوكل الليثى :

الشِّعر لُبُّ المرء يَعرِضُهُ ... والقول مثل مواقع النَّبْل ،
منها المقصِّر عن رَمِيَّته ... ونوافذٌ يذهبن بالخَصْلِ (١)

ولآخر :

وان كلام المرء فى غير كنهه ... لكالنَّبل يهوى ليس فيها نِصالها

للأضبط بن قُريع :

لكل هَمّ من الهموم سعَةْ ... والمسيء والقبيحُ لا فلاح معَهْ
فَصِلْ حبال البعيد ان وصل الحبـ ... ـلَ واقصِ القريب إن قطعَهْ
وخذ من الدهر ما أتاك به ... من قَرَّ عيناً بعيشهِ نفعَهْ
لا تَحقِرَنّ الفقير علَّكَ أن ... تركع يوما والدهر قد رفعَهْ
قد يجمع المالَ غيرُ آكِلِهِ ... ويأكل المالَ غيرُ من جَمَعَهْ

قال بعض بنى تميم : حضرت مجلس الأحنف بن قيس ، وعنده قوم مجتمعون فى أمر لهم ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « ان الكرم منع الحرم . ما أقرب النِّقمة من أهل البغى ! لا خير فى لذة تعقب ندما . لن يهلك من قصد ، ولن يفتقر من زهد . رُبَّ هزلٍ قد عاد جِدّاً ! من أمَّنَ الزمان خانه ، ومن تَعَظَّم عليه أهانه . دعوا المزاح فانه يورث الضغائن . وخير القول ما صدَّقه الفعل . احْتَمِلُوا لمن أَدَلَّ عليكم ، واقبلوا عذر من اعتذر اليكم أطع أخاك وان عصاك ، وصِلْه وان جفاك . أنصف من نفسك قبل أن يُنْتَصَفَ منك . إياكم ومشاورة النساء . واعلم أن كفر النعمة لؤم ، وصحبة الجاهل شؤم ، ومن الكرم الوفاء بالذمم . ما أقبح القطيعة بعد

(١) الخصل : اصابة الغرض

الصلة ، والجفاء بعد اللطف ، والعداوة بعد الود . لا تكونن على الاساءة أقوى منك على الاحسان ، ولا الى البخل أسرع منك الى البذل. واعلم أن لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق فى حق ولا تكونن خازنا لغيرك ، واذا كان الغدر فى الناس موجوداً فالثقة بكل أحد عجز . اعرف الحق لمن عرفه لك ، واعلم أن قطيعة الجاهل تعدل صلة العاقل »

قال : فما رأيت كلاما أبلغ منه ، فقمت وقد حفظته .

قالت عائشة رضى الله عنها : دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أتمثل بهذين البيتين :

ارفع ضعيفك لايجزبك ضعفه ... يوماً فتدركه العواقب قد نما
يجزيك أو يثنى عليك وإن من ... أجزى عليك بما صنعت فقد جزى

فقال صلى الله عليه وسلم : أعيدى علىّ قول اليهودى قاتله الله ، لقد أتانى جبريل برسالة ربى عز وجل ، أيما رجلٍ صنع الى أخيه صنيعة فلم يجد لها جزاءً الا الثناء فقد كافأه . وقد روى هذا الشعر لعريض اليهودى ، وروى أيضا لورقة بن نوفل ، وروى أيضا لزيد بن عمرو بن نفيل ،

قال جَحدر بن ربيعة العُكلى .

بكل صروف الدهر قد عشت حقبة[1] ... وقد حملتنى بينها كل محمل
وقد عشت منها فى رخاءٍ وغبطة ... وفى نعمة لو أنها لم تحوَّل
اذا المرء ولىَّ فاتَّعِظ من طلابه ... بمقلك واطلب سيب[2] آخر مُقبل

---

(١) الحقبة من الدهر مدة لا وقت لها .
(٢) السيب : المال .

وانك لا تدرى اذا كنت راجياً ... أفى الريث نجح الأمر أم فى التعجل
ولا تمش فى الحرب الضّراء (١) ولا تُطع ... ذوى الضعف عند المأزق المتحفّل (٢)
ولا تشتم المولى تتبع أذاءه ... فانك ان تفعل تُسَفّه وتُجهل
ولا تخذُلِ المولى لسوء بلائه ... متى يأكل الأعداء مولاك تُؤكل

قال أفلاطن : الذكر فى الكتب عمر لا يبيد . وقال إفريدون : الأيام صحائف أعمالكم فخلدوها أحسن أعمالكم .

ومثله قول المتنبى :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته ... مافاته وفضول العيش أشغال

قيل لخالد بن يزيد بن معاوية : ما أقرب شىء ؟ قال ، الأجل . قيل ، فما أبعد شىء ؟ قال ، الأمل . قيل ، فما أوحش شىء ؟ قال ، الميت ، قيل ، فما آنسُ شىء ؟ قال ، الصديق المُوالى .

قال أبو العتاهية :

من سابق الدهر كبا كبوةً ... لم يَستَقِلّها ، من خُطى الدهر
فاخطُ مع الدهر ، اذا ماخطا ... واجرِ مع الدهر ، كما يجري
ليس ، لما ليست له حيلة ... موجودةٌ ، خير من الصبرِ

وقال بشر بن المُعتمر :

حيلة ما ليست له حيلةٌ ... حسن عزاء النفس والصبر

---

(٣) الضرّاء : الزمانة والشدة .
(٤) تحفل اللابن : اجتمع . وتحفل المجلس : كثر أهله .

والجيد فى هذا، قول من قال : اذا حزبك[1] أمر فانظر ، فان كان مما فيه حيلة فلا تعجز ، وان كان مما لاحيلة فيه فلا تجزع .

وقال آخر

وللدهر أيام، فكن فى لباسها كلبسته، يوماً أجدَّ وأخلقا[2]
وكن أكيس الكيسين اذا كنت فيهم
وان كنت فى الحمقى فكن أنت أحمقا

وقال آخر :

اذا المرء أولاك هواناً ، فأوله هواناً، وان كانت قريباً أواصره
ولا تظلم المولى ، ولا تضع العصى عن الجهل، ان طارت اليك بوادره

وقال النابغة الجعدى :

ولا خير فى حلم ، اذا لم تكن له بوادرُ ، تحمى صفوه إن تكدّرا
ولا خير فى جهل ، اذا لم يكن له حكيمٌ، اذا ما أورد الأمر أصدرا

ومثله للمتنبي :

من الحلم أن تستعمل الجهل دونه ، اذا اتسعت فى الحلم طُرُق المظالم

وقال كعب بن عدى :

شُدَّ العصابَ[3] على البرىء بما جنى حتى يكون لغيره تنكيلا
والجهل فى بعض الأمور اذا اعتدى مستخرجٌ للجاهلين عقولا

---

(١) حزبه الامر حزبا : أصابه واشتد عليه
(٢) الخلق من الثياب : القديم البالى
(٣) العصاب بالكسر مصدر والعصاب الحبل الذى تعصب به الناقة

قال المُهلّب بن أبي صُفرة : عجبت لمن يشترى العبيد بماله ، ولا يشترى الأحرار بنواله

قال عبد الله بن المعتز : أفقرك الولد أو عاداك . قال القاهر : من صنع خيراً أو شراً بدأ بنفسه

قال الراضى : من طلب عِزّاً بباطل ، أورثه الله ذُلاً بحق .

قال عبد الله بن يحيى بن خاقان : عقل الكاتب فى قلمه .

قال أوس بن حارثة : أحقُّ من شركك فى النعم ، شركاؤك فى المكاره أخذ المعنى أبو تمام فقال ، ويرويان لابراهيم بن العباس :

وإنَّ أولى البرايا أن تُواسيه عند السرور ، لَمَنْ وافاك فى الحَزَن
ان الكرام اذا ما أسهلوا ، ذكروا من كان يألفهم فى المنزل الخَشِنِ

قال عبد الله بن أبى بكر ، من حدث نفسه بطول البقاء ، فليوطنها على المصايب .

قال أرسطاطاليس : من أيسَ من الشىء استغنى عنه . وقيل له : لما لا تجتمع الحكمة والمال ؟ قال : لعز الكمال .

وقال آخر : من أكل ما لا يشتهى ، أضره الامتناع مما يشتهى . الاستقلال مما يضر ، خير من الاستكثار مما ينفع .

قال أبو اسحاق المِرْوَزى : من تعوّد الفقر ثم استغنى ، فلا ترجُوَنَّ فضله - كأنه ينظر الى من قال : من ولده الفقر أبطره الغنى - نظر الى هذا المعنى ابن الرومى فقال :

فلا تَغْبُطَنَّ المُتْرَفين ، فانهم على قدر ما يعطيهم الدهر يَسْلُبُ

وقال آخر : الكريم لا تغلبه الشهوة ، ولا يحكم عليه الشرَهُ بسوأة ، ولا القدرة بسطوة ، ولا الفقر بذلة ، ولا الغنى بعزة ، ولا الضرُّ بضجر ، ولا الغنى ببطر .

قال عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه : ثلاث من النوافر ، جار مُقامةٍ ، إن رأى حسنة دفنها وإن رأي سيئة أذاعها ، وامرأة ان دخلت اليها لَسَنَتْك وإن غبت لم تأمنها ، وسلطان ان أحسنت لم يحمدك وإن أسأت قتلك .

ومن كلام على عليه السلام : يا بُنَيّ إنّه من أبصر عيب نفسه شُغل عن عيب غيره ، ومن سَلَّ سيف البغى قُتل به ، ومن حفر لأخيه بئراً وقع فيها ، ومن هتك حجاب غيره انكشفت عورات بيته ، ومن نسى خطيئته استعظم خطيئة غيره ، ومن تكبر عن الناس ذلّ ، ومن سفه على الناس شُتم ، ومن خالط العلماء وُقِّر ، ومن خالط الأنذال حُقر ، ومن أكثر من شيءٍ عُرف به ، والسعيد من وعُظ بغيره ، وليس مع قطيعة الرحم نماء ، ولا مع الفجور غنى . رأس العلم الرفق وآفته الخرق . كثرة الزيارة تورث الملالة .

ومن كلام الحسن بن على : المعروف مالم يتقدمه مطل ولم يتبعه مَنٌّ . الوحشة من الناس على قدر الفطنة بهم . النعمة محنة ، فان شكرت كانت كنزاً ، وإن كفرت كانت نِقمة . الأمين آمن ، والبرىء جرىء ، والخائن خائف ، والمسيء مستوحش .

وقال مالك ،إن لم يكن لك كان عليك ، فلا تبق عليه فانه لا يُبقى عليك ، وكُلْه قبل أن يأكلك .

قال على بن الحسين : من مأمنه يُؤتى الحذر . يكتفى اللبيب بوحى الحديث ، وينبو البيان عن قلب الجاهل ، ولا يُنتفع بالقول وان كان بليغاً مع سوء الاستماع .قال محمد بن على بن الحسين: كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو ، فان موسى بن عمران خرج يقتبس ناراً فعاد نبياً مرسلا .

وقال أيضا : ماعَرَف الخير من لم يتبعه ، ولا عرف الشر من لم يجتنبه .

وقال آخر : اعرف الخير لتعمل به ، واعرف الشر لئلا تقع فيه .

وقيل لعمر بن الخطاب،إن فلانا لا يعرف الشر قال:ذاك أحرى أن يقع فيه.

ومن كلام محمد بن على أيضا : ما أقبح الأسر عند الظفر ، والكآبة عند النائبة ! والغلظة على الفقير،والقسوة على الجار ، ومُشاحَّة[1] القريب، والخلاف على الصاحب ، وسوء الخلق على الأهل ، والاستطالة بالقدرة، والجشع مع الفقر ، والغيبة للجليس ، والكذب فى الحديث ، والسَّعى بالمنكر ، والغدر من السلطان، والخُلف من ذى المروءة! من سأل فوق قدره استحق الحرمان. صلاح من جهل الكرامة فى هوانه. المسترسل مُوَفَّق، والمحترس ملقى .

وقال جعفر بن محمد : من أخلاق الجاهل الاجابة قبل أن يسمع ، والمعارضة قبل أن يفهم ، والحكم بما لا يعلم .

وقال موسى بن جعفر : من لم يجد للاساءة مضضاً لم يكن للاحسان

---

(١) شاحَّ فلان بالشيء على فلان ضنَّ به عليه ومن معنى المماحكة والاعنات

عنده موقع . وقال : ما استبّ[1] اثنان الا انحط الأعلى الى مرتبة الاسفل . وقال آخر : ما استبّ اثنان الا غلب ألأمهما .

وقال موسى أيضاً : من تكلف ما ليس من عمله ضاع عمله وخاب أمله . من ترك التماس المعالى لانقطاع رجائه منها لم ينل جسيما ، ومن أبطرته النعمة وقّره زوالها . وقال : اذا نزل القضاء ضاق الفضاء . سوء العادة كمين لا يُؤمَن ، وأحسن من العُجب بالقول ألاّ تقول ، وكفى بالمرء خيانة ألاّ يكون أميناً للخونة ! لا يضرك سُخط من رضاه جَوْر . تَعَزَّ عن الشى إذا مُنعتَه لقلة صحبته اذا أُعطيتَه .

وقال الحسن ابنه : شر من المرزية سوء الخَلَف . من أقبل مع أمر وَلّى مع انقضائه . راكب الحَرُون[2] أسير نفسه ، والجاهل أسير لسانه . المِراء يُفسد الصداقة القديمة ، ويُحلّل العقدة الوثيقة ، وأقل مافيه المغالبة ، والمغالبة أمتن أسباب القطيعة .

وقال على بن موسى : إن للقلوب إقبالاً وادباراً ونشاطاً وفتوراً ، فاذا أقبلت أبصرت وفهمت ، واذا انصرفت كلّتْ وملت ، فخذوها عند إقبالها ونشاطها ، واتركوها عند ادبارها وفتورها .

قيل : اذا كان زمان ، العدل فيه أغلب من الجور ، فحرام أن تظن بأحد سوءًا ، حتى يعلم ذلك منه ، فاذا كان زمان ، الجور فيه أغلب من العدل ، فليس لأحد أن يظن بأحد خيراً حتى يرى ذلك منه .

قال محمد بن على بن موسى : خير من الخير فاعله ، وأجمل من الجميل قائله ،

---

(١) استبّوا : تشاتموا وفى الحديث (المُستبّان شيطانان)

(٢) الحرون : الذى لا ينقاد من الخيل .

وأرجح من العلم حامله ، وشر من الشر جالبه ، وأهول من الهول راكبه.

وقال الحسن ابنه : من مدح غير المستحق للمدح فقد قام مقام المتهم

وقال : ادفع المسألة ما وجدت المحمل يُمكّنك ، فان لكل يوم خيراً جديداً .

وقال الحسن بن محمد أيضاً : حسن الصورة جمال ظاهر ، وحسن العقل جمال باطن . وقال اعلم أن للحياء مقداراً ، فان زاد عليه فهو حَصَر (١) وللجود مقداراً فان زاد عليه فهو سَرَف ، وللحزم مقداراً فان زاد عليه فهو جبن ، وللاقتصاد مقداراً فان زاد عليه فهو تهوّر .

وقال جعفر بن محمد : الأدب عند الأحمق كالماء العذب فى أصول الحنظل ، كلما ازداد ريًّا ازداد مرارة .

وقال صاحب كليلة ودمنة : الأدب يذهب عن العاقل السُّكر ، ويزيد الأحمق سكراً ، كالنهار يزيد البصير بصراً ، ويزيد الخُفّاشَ سوء بصر .

وقال عبيد الله بن عمر : اتقوا من تُبغضه قلوبكم .

وقال بعض ملوك الهند : من ودك لأمر أبغضك عند انقضائه .

وقال آخر : من كان نفعه فى مضرتك لم يخلُ من عداوتك .

وقال آخر : الاحتمال حتى تمكّن القدرة .

وقال أنوشروان : اذا لم يكن ماتريد ، فأرد مايكون .

وقال الحارث بن أبى شمر الغسانى : اذا التقى السيفان بطل الخيار

وقال رستم : اذا أردت أن تطاع فسل مايستطاع

---

(١) الحصر : ضيق الصدر ، والبخل ، والعِىُّ فى المنطق .

ويشبهه قول عمرو بن معدى كَرِب :

اذا لم تستطع شيئاً ، فدعه ✗ وجاوزه الى ماتستطيع

من كلام أرسطاطاليس : اذا كانت الشهوة فوق القدرة ، كان هلاك الجسم دون بلوغ الشهوة . الزمان يُنشىء ويُلاشى ، ففناء كل قوم سببٌ لكون آخرين . يسيرٌ من ضياء الحسِّ خير من كثير من حفظ الحكمة.

ونقله المتنبي الى معنى آخر فقال :

فان قليل الحب بالعقل صالح وان كثير الحب بالجهل فاسد

وقال : قد يفسد العضو لصلاح أعضاء ، كالكى والفصد اللذين يفسدان الأعضاء لصلاح غيرها . ومثله قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل

وقال : الظلم من طبع النفوس ، وانما يصدها عن ذلك أحد علتين ، إما علة دينيه بخوف معاد ، أو علة سياسية بخوف سيف . وقال المتنبي :

والظلم من شيم النفوس فان تجد ذا عفة فلعلة لايظلم

وقال : علل الأفهام أشد من علل الأجسام

وقال : ثلاثة ان لم تظلمهم ظلموك ، ولدك وعبدك وزوجك ، فسبب صلاح حالهم التعدى عليهم .

وقال : من نظر بعين العقل ورأى عواقب الأمور قبل بوادرها ، لم يجزع بحلولها .

وقال : اذا لم تتجرد الأفعال من الذم ، كان الاحسان اساءة .

وقال : خوف وقوع المكروه قبل تناهى المدة خَوَرٌ فى الطبع .

وقال : من لم يقدر على فعل الفضائل ، فلتكن فضائله ترك الرذائل .

وقال : من جعل الفكر فى موضع البديهة ، فقد أضر بخاطره ، وكذلك مستعمل البديهة فى موضع الفكر .

وقال : افراط التوقى أول موارد الخوف .

قال عمر بن عبد العزيز : قيّدوا النعم بالشكر ، وقيدوا العلم بالكتابة .

وقال الخليل بن أحمد : كن على مدارسة مافى قلبك أحرص منك على حفظ مافى كتبك . وقال أيضاً : اجعل مافى كتبك رأس مال ، وما فى صدرك للنفقة .

ومن أمثال العرب : خير العلم ماحوضر به ، يقول : ماحفظ يكون للمذاكرة .

قال صابىء البرجمى :

وما عاجلات الطير تُدني من الفتى ... نجاحاً ، ولا عن ريثهنّ يَخيبُ
ورُبَّ أمور لا تَضيرك ضَيْرةً ... وللقلب من مخشاتهن وجيب
ولا خير فيمن لايوطن نفسه ... على نائبات الدهر حين تنوب

وقال الصلتان العبدى :

أشاب الصغير وأفنى الكبير ... كرُّ الغداة ومَرّ العشى
اذا ليلةٌ هَرَّمَتْ يومها ... أتى بعد ذلك يوم فتىّ
نروح ونغدو لحاجاتنا ... وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته ... وتبقى له حاجة ما بقى

وقال شبيب بن البَرْصاء :

يُبَينُ إدْبارُ الأمور اذا مضت ... وتُقبل أشباهاً عليك صدورها
تُرَجّى النفوس الشىء لا تستطيعه ... وتخشى من الأشياء ما لا يضيرها

وقال الحارث بن حِلِزّة :

لا تكسع[1] الشّوْل[2] بأغبارها ... انك لا تدرى من النّاتج
واصبُب لأضيافك ألبانها ... فان شر اللبن الوالج
بينا الفتى يسعى ويُسعى له ... تاح له من أمره خالج
يترك ما رنّح من عيشه ... يميث فيه هَمجٌ هامجُ

وقال أُحَيْحة بن الجُلاّح :

فما يدرى الفقير متى غناه ... ولا يدري الغنى متى يعيل
ولا تدرى اذا أزمعتَ أمراً ... بأى الأرض يدركك المقيل

وقال بشر بن سليمى بن عامر بن جَوْن بن قُشَير

ولم أر مثل الخير يتركه امرؤ ... ولا الشّر يأتيه امرؤ وهو طائع
ولا كاتقاء الله خيراً تقيّةً ... وأحسن صوتاً حين يسمع سامع
ولا كالمُنى لا تُرجع الدهرَ طائلاً ... لو أن الفتى عنهن بالحق قانع
ولا كذهاب المرء فى شأن غيره ... ليشغله عن شأنه وهو ضائع

وقال تأبط شرًّا :

عاذلتا إن بعض اللوم مَعنَقَةٌ ... وهل متاعٌ وإن أبقيتُه باقِ
سَدِّد خِلالَك من مالٍ تُجمّعه ... حتى تلاقى الذى كل امرىء لاقِ
لتقرَعَنّ علىّ السن من ندم ... اذا تذكرت يوماً بعض أخلاق

أبو النشناس ، أحد لصوص بنى تميم :

اذا المرء لم يَسْرح سواماً ولم يُرَحْ ... اليه ولم يبسط له الوجهَ صاحبُه

---

(١) كسع الناقة بغبرها ترك بقية من لبنها فى خلفها يريد بذلك تغزيرها
(٢) الشول جمع شائلة وهى الناقة التى اتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها

فَلَلْموت خير للفتى من حياته فقيراً ومن مولى تُعاف مشاربه
فلم أر مثل الفقر ضاجعه الفتى ولا كسواد الليل أخفق طالبه
فعش مُعذراً أو مت كريما فانني أرى الموت لا يُبقي على من يطالبه

وبعده بيتان أوردناهما في الفصل الرابع من هـذا الكتاب. وسمع عبد الملك بن مروان قوله: فلم أر مثل الفقر البيت، فقال: لص، ورب الكعبة. وقال المتوكل الليثي:

لا تنْهَ عن خُلق وتأتي مثـله عار عليك اذا فعلت، عظيمُ
والهَمُّ ان لم تمضه لسبيله داءٌ تَضَمَّنه الضلوعُ، مقيمُ

أبو بكر العُورَمِيّ الكوفي:

لسان الفتى نصف، ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
وكائن ترى من ناطق لك صامت زيادته أو نقصه في التكلم

وقال الرضي الموسوي:

وما الدهر إلا نعمة ومصيبة وما الخَلْقُ الا آمن وجَزوع
ويوم رقيق الطُّرَّتين مُصَفَّقٌ وخطب جُرازُ المضر بَيْن قَطُوع (١)
عجبت له يَسْرِي بنا وهو واقف ويأكل من أعمارنا ويجوع

وقال ايضا:

لا تطلب الغاية القصوى فَتُحْرَمها فانَّ بعض طلاب الربح خُسران
والعزم في غير وقت العزم مَعْجَزَةٌ والازديادُ بغير العقل نقصان
واجعل يديك مَجَازَ المال تَحْظَ به إنّ الأَشِحَّاءَ للوُرّاثِ خُزّانُ

---

(١) الجراز السيف القاطع

وقال رجل من بنى قُريع :

متى ما يرى الناسُ الغنىَّ وجارُهُ ... فقيرٌ يقولوا عاجزٌ وجليدُ
وليس الغِنى والفقر من حيلة الفتى ... ولكنْ أحاظٍ قُسِّمَتْ وجُدود
اذا المرءُ أعيته المروءةُ ناشئًا ... فمطلبها كهلاً عليه شديدُ

وقال آخر :

وإنك لا تدرى اذا جاء سائل ... أأنت بما تُعطيه أم هو أسعدُ
عسى سائل ذو حاجة إن منعتَه ... مِن اليوم سُؤْلاً أن يكون له غَدُ
وفى كثرة الأيدى عن الجهلِ زاجرٌ ... وللحِلمُ أبقى للرجال وأعودُ

محمد بن هانى :

صَهٍ كل آتٍ قريبُ المدى ... وكُلُّ حياةٍ الى مُنتهى
ولم أر كالمرء وهو اللبيـــــبُ يرى ملءَ عينيه مالا يرى
وليس النواظر إلا القلوبُ ... فأما العيونُ ففيها العمى
ومن لى بمثل سلاح الزمان ... فأسطو عليه اذا ما سطا
يَجِدّ بنا وهو رَسْلُ العَنا ... نو يُدركنا وهو دانى الخُطا

قال أفلاطن : لا ينبغى للأديب أن يخاطب من لا أدب له ، كما لا ينبغى للصّاحى أن يخاطب السكران .

وتَفَخَّروا عند فيثاغورس بالمال، فقال: وما حاجتى الى الذى يُعطيه الحظ ويحفظه اللؤم ، ويُهلكه السّخاء .

وقال عدى بن زيد العَبَادي من قصيدة :

أعاذلُ من تكتب له النارُ يَلْقَها ... كفاحًا ومن يُكتب له الفوز يُسعَدِ

أعاذلُ ما أدنى الرشادَ من الفتى: وإن المنايا للرجال بمرصَدِ
أعاذلُ مايدريك أنّ مَنِيّتى الى ساعةٍ فى اليوم أو فى ضُحى غدِ
أعاذل من لايحكم النفس خاليا عن الغى لايُرشد لطول التّعنُّدِ
كفى زاجراً للمرء أيام دهره: تروح له بالواعظات وتغتدى
فنفسك فاحفظها من الغىّ والردى متى تَغْوِها تُغْوِ الذى بك يقتدى
وان كانت النعماء عندك لامرىءٍ فَمَثِّلْ بها واجزِ المطالِبَ واردُدِ
اذا ما امرؤٌ لم يَرْجُ منك مودةً فلا تَرْجُها منه ولا دَفْعَ مَشْهد
عن المرء لاتسأل وسَلْ عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى
اذا أنت طالبتَ الرجالَ برأيهم فعِفَّ ولا تأخُذ بجهْدٍ فتَنْكَدِ
وفى الخلق إذلال لمن كان باخلا ضنينا ومن يبخل يذل ويزهد
اذا مارأيتَ الشرَّ يبعثُ أهله وقام جناةُ الغىّ للغىّ فاقعدِ

إذا كانت الغاية الزوال فما الجزع من تصرف الأحوال!

(من رضى عن نفسه سخط الناس عليه). قال رجل لمسعَر: أتحب أن تهدى اليك عيوبك؟ فقال، أما من ناصح فنعم، وأما من شامتٍ فلا

بشار بن برد:

وافق حظًّا من سعى بِجِدٍّ ما ضرَّ أهلُ النُّوكِ[1] ضعفُ الكدِّ
الحُر يُلْحَى والعصا للعبد وليس للمُحافِ مثل الرَّدِّ
والنَّصِفُ يكفيك من التعدى

---

(١) أهل النوك هم الحمقى

قال حكيم : رُبَّ مغبوطٍ بنعمة هى داؤه ؛ ورب محسود على حال هى بلاؤه ، ورب مرحوم من سقم هو شفاؤه .

ومن كلامهم : من ضاق قلبه اتّسع لسانه . من اغتر بالعدو الأريب خان نفسه . من لم يركب المصاعب لم ينل الرغائب . من ترك التوقى فقد استسلم لقضاء السوء . من لم تؤدبه المواعظ أدّبته الحوادث . من لم يعرف قدره أوشك أن يذل . من لم يدبر ماله أوشك أن يفتقر .

قال الأحنف : كل ملك غدار ، وكل دابّةٍ شرود ، وكل امرأة خؤون .

قال حكيم : لذات الدنيا معدودة ، منها لذة ساعة ولذة يوم ولذة ثلاث ولذة شهر ولذة سنة ولذة الدهر ، فأما لذة ساعة فالجماع ، وأما لذة يوم فمجلس الشراب ، وأما لذة ثلاث فلين البدن بعد الاستحمام ، وأما لذة الشهر فالفرح بالعرس ، وأما لذة السنة فالفرح بالمولود الذكر ، وأما لذة الدهر فلقاء الاخوان مع الجِدَة .

وقال آخر : الشكر محتاج الى القبول ، والحسب محتاج الى الأدب ، والسرور محتاج إلى الأمن ، والقرابة محتاجة إلى المودة ، والمعرفة محتاجة الى التجارب ، والشرف محتاج الى التواضع ، والنجدة محتاجة الى الجد .

كان لقمان عند داوود عليه السلام ، وهو يُسْرد الدرع ، فجعل يرى شيئا لا يدرى ماهو وتمنعه حكمته عن السؤال ، قال فلما فرغ صبّها عليه ، وقال : نعم أداة الحرب هذه ! فقال : إن من الصمت حكما وقليل فاعله ، أردت أن أسألك فكفيتنى .

قال لقمان لابنه : يابنىّ جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ، فان الله عز وجل يحيى القلوب بنور الحكمة ، كما يحيى الميتة بوابل السماء . ومن كلامه :

يابنيَّ كذب من قال إن الشرَّ يطفىء الشر، فان كان صادقا فليوقد نارا عند نار، فلينظر هل تطفىء احداهما الأخرى. يابنيَّ الخير يطفىء الشر كما يطفىء الماء النار. ومن كلامه: لا تأمَنَنَّ امرأة على سرٍّ، ولا تطأ خادمة تريدها للخدمة، ولا تستَلِفَنَّ من مسكين استغنى. قال أبو بكر رضى الله عنه: أشقى الناس الملوك، فرأى ممن حضره استبعاداً لذلك، فقال: عجلون، جائرون، أما علمتم أن الملك اذا ملك قصر أجله، ووكلت به الروعة والحزن، وكثر فى عينه قليل مافى يد غيره، وقل فى نفسه كثير ماعنده.

الفصل الثانى

ما يجب للولاة وعليهم للرعية
وما يلزمهم من تقبُّل الأخلاق المرضية

رَبِّ أنعمت فزد. قالت العلماء: مقاصد الخلق مجموعة فى الدين والدنيا ولا يوصل الى الدين الا بالدنيا، فانها الطريق الى الآخرة. وليس ينتظم أمر الدنيا إلا بأعمالهم. والأعمال تنحصر فى ثلاثة أقسام: أحدها أصول هى قوام للعالم لاغناء للأغلب منهم عنها، وهى أربعة: الزراعة وهى للمطعم، والحياكة وهى للملبس، والسياسة وهى للتأليف والاجتماع والتعاون على بقية الأعمال وضبطها. القسم الثانى ما يهيىء هذه الصناعات ويعين عليها كالحدادة يُعَدُّ بها آلات الزراعة، والغزل يُعَدُّ به محل الحياكة. القسم الثالث ما تتم به الاصول ويزينها، كالخبز للزراعة، والخياطة للحياكة. وأشرف هذه الصناعات أصولها، وأشرف أصولها السياسة، إذ كانت حافظة نظام الكل، فتستدعى هذه الصناعة من الكمال مالا تستدعيه سائر الصناعات ولذلك يستخدم صاحبها سائر الصُّناع. وخلق الله الدنيا زاداً للمعاد ليتناول الناس منها ما يُؤديهم الى الدار الأخرى. فلو تناولوها بالعدل انقطعت الخصومات، ولكنهم تناولوها بالجَوْر ومتابعة الشهوات ومحبة الاستئثار، فتولدت بينهم المنازعات، فاحتاجوا الى سلطان يسوسهم ويضبط أمورهم، ولولا ردع السلطان لغلب قويُّهم ضعيفَهم، ولم يكن دافع عن قتل، ولا وازع عن غضب.

وقد قال أزدشير: الدين والملك توأمان، والدين أصل والملك حارس

وما لا أصل له فمهدوم ، وما لا حارس له فضائع . ودَلّت الشرائع والعقول على وجوب مقتدى به فى كل زمان وأوان . وما رأينا مِلّةً ولا دولة خلت من ذلك ، حتى العرب ساكنى البيد والقفار ، والجائلين مع الوحش فى الفلوات ، فانهم لما لم يجمعهم مكان ولا نَظَم شملَهم سلطان ، جعلت كل فرقة منها سَيِّداً من فضلائها وذوى آرائها ، يرجعون اليه فى حروبهم ويأتمرون بأمره وينزجرون بزجره ، وكانت لهم أيضاً ملوك، أكثرهم لهم مطيعون ، ولذلك قال حكيم من شعرائهم :

لا يَصلحُ الناسُ فوضى لا سَراةَ لهم ولا سراةَ اذا جُهّالهم سادوا

وعلى حسب أخلاق السلطان يكون الزمان . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اثنان فى الناس اذا صلحا صلح الناس واذا فسدا فسد الناس، العلماء والأمراء) . وقالت الحكماء : الملوك ثلاثة ، ملك دين وملك حزم وملك هوى ، أما ملك الدين فاذا أقام لرعيته دينهم ، كان دينهم هو الذى يُعطيهم ما لهم ويُلحق بهم ما عليهم ، أرضاهم بذلك وأنزل الساخط منهم بمنزلة الراضى فى التسليم والاقرار ، وأما ملك الحزم فانه يقوى على الامر ولا يسلم من الطعن ، ولن يَصبِرَ طعن الذليل مع حزم القوى ، وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر .

وقالوا : الملك محتاج من الناس الى كثير منهم ، وهم محتاجون منه الى واحد . ومن ها هنا وجب أن يوازى حلمُه أحلامَهم ، ويوازن فهمُه أفهامَهم ، وأن يَعُمَّهم بعدله ، ويَغمُرَهم بفضله ، ، ويكنُفهم كنافة الجفون لنصولها والكنائن لسهامها .

وقال على بن أبى طالب : من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ

بتعليم نفسه و مُعَلِّمُ نفسه ومؤدبها أحقُّ بالاجلال من معلم الناس ومؤدبهم.

ومن كلام له ، يذكر فيه حق الولاة والرعية بعضهم على بعض : أما بعد . فقد جعل الله لى عليكم حقا بولاية أمركم ، ولكم علىَّ من الحق مثل الذى لى عليكم والحق أوسع الأشياء فى التواصف، وأضيقها فى التناصف. لايجرى لأحد إلا جرى عليه ، ولا يجرى عليه إلا جرى له ، ولو كان لأحد أن يجرى له ولا يجرى عليه ، لكان ذلك خالصا لله تعالى دون خلقه لقدرته على عباده ، ولعدله فى كل ماجرت عليه صروف قضائه ، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه ، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب ، تفضلا منه ،وتوسعا بما هو من المزيد لاهله ، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض ، فجعلها فى وجوهها ، ويوجب بعضها بعضا ، ولايستوجب بعضها إلا ببعض . وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق: حق الوالى على الرعية ، وحق الرعية على الوالى ، فريضة فرضها الله لكل على كل ، فجعلها نظاما لألفتهم وعزاً لدينهم،فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة ، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية ، فاذا أدت الرعية إلى الوالى حقه ، وأدى اليها حقها ، عز الحق بينهم ، وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل ، فصلح بذلك الزمان ، وطمع فى بقاء الدولة ، ويئست مطامع الاعداء . واذا غلبت الرعية واليها،وأجحف الوالى برعيته اختلفت هناك الكلمة ، وكثرت معالم الجور وكثر الادغال[1] فى الدين ، وتركت فجاج[2] السنن،فعمل بالهوى، وعطلت الاحكام، وكثرت

(١) أدغل الرجل فى الامر : أدخل فيه مايفسده ويخالفه

(٢) جمع فج وهو الطريق الواسع الواضح بين جبلين

علل النفوس ، فلا تستوحش لعظيم أمر عطِل ، ولا لعظيم باطل فعل ، فهناك تذل الابرار ، وتعز الاشرار ، وتعظم تبعات الله عند العباد ، فعليكم بالتناصح فى ذلك ، وحسن التعاون عليه .

يقال إن جمشيد ، وهو الثالث من ملوك الفرس ، ملك الاقاليم ، وصنّف الناس وطبّقهم ، وعمل أربعة خواتيم : خاتما للحرب والشرط وكتب عليه (الاناة) ، وخاتما للخراج وجباية الاموال وكتب عليه (العمارة) ، وخاتما للبريد وكتب عليه (الوحى[1]) ، وخاتما للمظالم وكتب عليه (العدل) ، فبقيت هذه الرسوم فى ملوك الفرس إلى أن جاء الاسلام

وقال أزدشير بن بابك ، فى عهده المشهور : اعلموا أنه من شاء ألا يسير بسيرة إلا قرظت[2] له فعل . ومن شاء منكم ، بعث العيون على نفسه فأذكاها فلم يكن الناس بأعلم منه بعيبه . واعلموا أن لباس الملك ومطعمه مقارب للباس السوقة ومطعمهم ، وبالحرى أن يكون فرحهما بما نالا من ذلك واحداً . وليس فضل الملك على السوقة إلا بقدرته على اقتناء المحامد ، فان له ذلك إذا شاء أحسن وليست السوقة كذلك . اجعلوا حديثكم لاهل المراتب ، وحِباءكم[3] لاهل الجهاد ، وبشركم لاهل الدين ، وسركم عند من يلزمه ، خير ذلك وشره .

قال ابن المقفع فيما يتأدب به السلطان : إنك إن تلتمس رضى جميع الناس تلتمس مالا يدرك . وكيف يتفق لك رضى المتخالفين ؟ أم ما حاجتك

---

(١) الوحى : السيد الكبير ، والنار ، والملك والعجلة والاسراع

(٢) قَرِظ الرجل قرظاً ساد بعد هوان

(٣) الحِباء : العطاء

الى رضا من رضاه الجور ، والى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ، فعليك بالتماس رضا الأخيار وذوى العقول ، فانك متى تصب ذلك تضع عنك مؤنة ماسواه . إحرص أن تكون خبيراً بأمور عمالك ، فان المسيء يفرق [1] من خبرتك قبل أن تصيبه عقوبتك ، وان المحسن يستبشر بعلمك فيه قبل أن يأتيه معروفك . ليعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعاجل بالثواب ولا بالعقاب ، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجى .

قال صاحب كليلة ودمنة : رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه ، وانزالهم منازلهم ، واتهام بعضهم على بعض ، فانه ان وجد بعضهم الى اهلاك بعض سبيلا ، أو الى تهجين بلاء المبلين ، واحسان المحسنين ، والتغطية على اساءة المسيئين ، سارعوا الى ذلك ، واستحالوا محاسن أمور المملكة ، وهجنوا مخارج رأيه ، ولم يبرح منهم حاسد قد أفسد ناصحاً ، وكاذب قد اتهم أمينا ، ومحتال قد أعطب بريئاً . وليس ينبغى للملك أن يفسد أهل الثقة بغير أمر يعرفه ، بل ينبغى فى فضل حلمه ، وبسطة علمه ، الحيطة على رأيه فيهم ، والمحاماة على حرمتهم وذمامهم ، وإلا يُسرع الى افسادهم ، ولا يغتمر مع ذلك فى زلة إن زلها أحد منهم ، ولم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم ، وجبناؤهم شجعانهم ، ولئامهم كرماءهم ، وفجارهم أبرارهم ، وشرارهم خيارهم .

وقال سابور بن أزدشير ، فى عهده الى ولده : وليكن وزيرك المقبول

---

(١) يفرق : يخاف

عندك قوىّ المنزلة لديك ، يمنعه مكانه منك ، وما يثق به من لطافة منزلته من الخشوع لأحد ، أو الضراعة لأحد ، أو المداهنة لأحد فى شىء مما تحت يده ، لتبعثه الثقة بك على محض النصيحة اليك ، والمنابذة لمن أراد غشك ، وانتقاصك حقك . وإن أورد عليك رأياً يخالفك ، ولا يوافق الصواب عندك ، فلا تجبهه [١] جبهة الظنين ، ولا ترده عليه بالتجهم [٢] فيفت فى عضده [٣] ذلك ، ويقبضه عن ايتائك كل رأى يلوح صوابه ، بل اقبل ما ارتضيت من قوله ، وعرفه ماتخوفت من ضرر الرأى الذى انصرفت عنه ، لينتفع بأدبك فيما يستقبل الرأي فيه . واحذر كل الحذر أن تنزل بهذه المنزلة سواه ، ممن يطيف بك من خدمك وخاصتك ، وأن تسهل لأحد منهم السبيل الى الانبساط بالنطق عندك ، والافاضة فى أمر ولايتك ورعيتك ، فانه لا يوثق بصحة رأيهم ، ولا يؤمن الانتشار فيما أفضى من السر اليهم .

قال أبو اسحاق الصابى ، فى كلام جمعه من كلام الحكماء : الملك باصطفاء رجاله أحق منه باصطفاء أمواله ، لأن كل درهم يسد مكان أخيه ، وما كل رجل يسد مكان أخيه .

قال على بن أبى طالب عليه السلام : يجب على الوالى أن يتعهد أموره ، ويتفقد أعوانه ، حتى لا يخفى عليه احسان محسن ، ولا اساءة مسيء ؛ ثم

---

(١) جبهه أى صدمه فى الكلام بعنف

(٢) تجهّمه وتجهم له : استقبله بوجه كريه

(٣) فت فى عضده : أضعفه

لايترك أحدهما بغير جزاء، فانه اذا ترك ذلك تهاون المحسن، واجترأ المسيء، وفسد الأمر، وضاع العمل.

ومن كلام له عليه السلام فى المعنى: أزجر المسيء بثواب المحسن. أخذ المعنى ابراهيم بن العباس الصولى فقال: اذا كان للمحسن من الثواب ماينفعه، وللمسيء من العقاب مايقمعه، بذل المحسن ماعنده رغبة، وانقاد المسيء للحق رهبة.

كتب ابرويز الى ابنه، شيرويه، وهو فى حبسه: لاتوسعن على جندك فيستغنوا عنك، ولا تضيقن عليهم فيضجوا منك. أعطهم عطاء قصداً، وامنعهم منعا جميلا، ووسّع عليهم فى الرجاء، ولا توسع عليهم فى العطاء.

وروى أن المنصور لما سمع هذا الكلام، قال فى عقبه:

صدق الاعرابى، أجع كلبك يتبعك. فقام أبو العباس الطوسى فقال: ياأمير المؤمنين: أخشى أن يُلوِّح له غيرك برغيف، فيتبعه ويدعك. فسكت المنصور وعلم أنها كلمة لم تُخَطَّم[1]

كتب أرسطاطاليس الى الاسكندر: املك الرعية بالاحسان اليها تظفر بالمحبة منها، فان طلبك ذلك باحسانك أدوم بقاء منه باعتسافك. واعلم انك انما تملك الأبدان، فتَخطّها الى القلوب بالمعروف. واعلم أن الرعية اذا قدرت أن تقول قدرت أن تفعل، فاجتهد على ألا تقول تسلم من أن تفعل. وهذا مخالف لما روى عن معاوية، فان رجلا أغلظ له فحلم عنه،

---

(١) خطّمه بالكلام. قهره ومنعه حتى لاينبس

فقيل له : أتحلم عن مثل هذا ؟ فقال : إنا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم ، ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

وقال بعض ملوك العجم : انما أملك الأجساد لا النيات ، وأحكم بالعدل لا بالرضاء ، وأفحص عن الأعمال لا عن السرائر . وقد قال من قبلنا : أسوس الناس من قاد أبدان الرعية الى طاعته بقلوبها .

وقال الوليد بن عبد الملك لأبيه : يا أبت ما السياسة ؟ قال : هيبة الخاصة مع صدق مودتها ، واقتياد قلوب العامة بالانصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع .

قال صاحب كليلة ودمنة : اذا عرف الملك أن رجلاً يساوى به فى المنزلة ، والهمة ، والرأى ، والمال ، والتبع ، فليصرعه ، فان لم يفعل فهو المصروع .

وقال معاوية : ليس بين الملك وبين أن يملك جميع رعيته ، أو يملكه جميعُهم ، إلا حزم أو توانٍ .

قيل : مضار الملك من قبل ستة أشياء ، الحرمان ، والفتنة ، واللهو ، والفظاظة ، والزمان ، والخرق . فاما الحرمان فان يحرَمَ خصالاً ستاً ، أو يعطاها منقوصةَ فاسدة ، منها ، صالحو الوزراء من أهل الرأى والنصيحة والامانة ، ومنها الاجتهاد ، ومنها الاموال ، ومنها البلد ، ومنها الحصون ، ومنها البُردُ والرسل . وأما الفتنة فتهييج بعض الأعوان واحواجُه الى الخروج على الملك ، أو شغب الجند وتحاربهم . وأما اللهو فالاغرام بالنساء أو الشراب ، أو الملاعب ، أو الصيد ، اغراما يستغرق الفراغ . وأما الفظاظة فافراط الخصومة ، حتى يجمح اللسان بالشتم ، واليد بالبسط ، والابتزاز لما

ليس له بحق . وأما الزمان فهو ما يصيب الناس من السنين ، من الغرق ، والحرق ، والوباء ، وكثرة الامطار ، والبرد ، وقلة الامطار ، وشدة البرد والحر بافراط ، وكثرة الهوام التى يكون بها نقص الثمرات أو المَوَتان . وأما الخُرق وسوء التدبير فان يعامل الاعداء فى موضع السلم بالحرب ، وفى مواضع الحرب بالسلم والموادعة ، وفى المواضع التى يحتاج فيها الى المكيدة والصبر والحذر والتدبير بالخطأ والمغالبة والغلظة وترك السياسة .

قيل : أهل الحزم من الملوك يجعلون لكل ذنب عقوبة ، فلذنب السر عقوبة السر ، ولذنب العلانية عقوبة العلانية .

ومن كتاب ابرويز الى ابنه شيرويه : اجعل عقوبتك على اليسير من الجناية ، كعقوبتك على الكثير منها ، فاذا لم يُطمع منك فى الصغير ، لم يجترأ عليك فى الكبير ، وابرد البريد فى الدرهم ينقص من الخراج ، ولا تعاقبن على شىء كرزقك على أرجائه .

وقال لصاحب بيت ماله : انى لا أحتملك على خيانة درهم ، ولا أحمدك على حفظ ألف ألف ، لانك انما تحقن بذلك دمك ، وتعمُر به امانتك ، وإنك إن خنت قليلا خنت كثيرا .

وقال زياد : أحسنوا الى اهل الخراج ، فانكم لاتزالون سمانا ما سمنوا .

ومن كلام ابن المقفع : ليس للملك ان يغضب لان القدرة من وراء حاجته ، وليس له أن يكذب لانه لايقدر أحد على استكراهه على غير مايريد ، وليس له أن يبخل لانه أقل الناس عذراً فى خوف الفقر ، وليس له أن يكون حقوداً لان خطره قد عظم عن مجاراة كل الناس . وليتق أن يكون حلافاً ، فأحق الناس باتقاء الأيمان الملوك ، وانما يحمل

الرجل على الحلف احدى خلال ، إما مهانةٌ يجدها فى نفسه وحاجة الى تصديق الناس إياه ، وإما عِىٌّ بالكلام حتى يجعل الايمان لكلامه حشواً ولمنطقه وصلا ، وإما تهمة قد عرفها من الناس لحديثه فهو يُنزل نفسه بمنزلة من لا يُقبل له قول إلا بعد جهد اليمين ، وإما عبث فى القول وإرسال اللسان على غير روية ولا تقدير ولا حسن تعويد له ، فتعود قول السداد والتثبت . ليعلم الوالى أن الناس يصفون الولاة بسوء العهد ونسيان الود ، فليكابد نقض قولهم ، وليبطل عن نفسه وعن الولاة صفات السوء التى يوصفون بها . ليتفقد الوالى فيما يتفقد من أمور رعيته ، فاقة الاحرار والاخيار ، وليعمل فى سدها ، وطغيان السفلة منهم فليقمعه وليستوحش من الكريم الجائع واللئيم الشبعان ، فانما يصول الكريم اذا جاع ، واللئيم اذا شبع . لايحسن بالوالى أن يحسد من دونه ، فانه أقل عذراً فى ذلك من السوقة التى انما تحسد من هو فوقها ، وكل لاعذر له . لايولعن الوالى بقول الناس فى سوء الظن ، وليجعل لحسن الظن من نفسه نصيبا موفورا ، يروح به عن قلبه ، ويصدر به أعماله لايضيعين الوالى التثبت عند قوله وفعله وعطائه ، فان الرجوع عن الصمت أحسن من الرجوع عن الكلام ، وان الاقدام على العمل بعد التأنى فيه أحزم من الامساك عنه بعد الاقدام عليه ، وان العطية بعد المنع أحسن من المنع بعد الاعطاء ، وكل الناس محتاجون الى التثبت ، وأحوجهم اليه ملوكهم الذين ليس لقولهم وفعلهم دافع ، وليس عليهم مستحث

وقد جمع ابو اسحاق ابراهيم بن هلال [1] الصابى ، من كلام الحكماء فقراً ، فمنها : الملك القادر أولى بالتأنى فى حكوماته ، والتثبت فى عزماته ، لانه

(١) فى الاصل هليل والمعروف هلال

ان أخذها على شبهة وأمضاها على غير بينة لم يكن له دافع عنها ، ولم يخل أيضا من مساعد عليها. الملك المتنعم اذا أفاض المكارم واغتفر الجرائم، ارتبط بذلك خلوص نية من قرب منه وهم الاقل ، وانفساح الامل ممن بعد عنه، وهم الأكثر، فيستخلص حينئذ ضمائر الكل من حيث لم يصل معروفه إلا الى البعض . الملك تلزمه الحقوق بأيسر سعى الساعين لها ، وأقصر أمد الجارين اليها لأنهم ان انتظر بهم أن يعقدوا عليه المنن الجمة ، وأن يسبغوا عليه النعمة الضخمة ، لم يكن لهم بذلك طاقة ، ولم يكن به اليهم فاقة ، لكن المحل الذي حله ، والمكان الذى تبوأه ، يوجبان عليه أن يكون على القليل من الذمام محافظا، وبعين الرعاية له ملاحظا. الملك اذا وعد وفا ، واذا أوعد عفا . الملك اذا استكفى أحد ثقاته أمراً تشكل عواقبه ، وتشتبه اعجازه فانتشر ذلك الامر عليه من حيث لم يأل جهداً فى طلب نظامه ، والسعى لالتئامه ، فواجب أن يحمده أو يذمه ، فانه ان ذمه قبضه وقبض نظراءه عن الدأب فى المصالح والطلب للمناجح ، ولحقهم من قصور الهمم ما يعود وهنه عليه ويتعلق شكايته به ، لأنهم يشتغلون عن التوصل الى مايرومه بالتحرز عما يضرهم . الملك يتوصل اليه كل من تنكر له وتعتب عليه ، وهم طبقات ثلاث : فمنهم من ذنبه مقرون بعذره ، قد أماطه عنه وأخرجه سليما منه ، ويقال أقر بالذنب طاعة ، وأمسك عن العذر هيبة ،

ولا يحسن أن يُقتصر بمن هذه حاله، على أن تسقط الأُبَّهة عنه دون أن تجب المحمدة له . ومنهم من ذنبه واضح ، وعذره مُعْوز ولكنه فرد لا أخ له ، وفَذّ لا توأم معه . والأولى به أن يقال اذا اعترف بالحوبة . وأخلص فى التوبة . ومنهم المتردد فى هفواته، والمتكرر فى عثراته ، الجارية

عادته أن يكسر التوبة اذا تاب، ويفسخ عقد الانابة اذا أناب ، فذاك الذى يعاقب بالاطراح ، ولا يُطمع منه فى الفلاح . الملك بمن غلط من أتباعه فاتعظ . أشد انتفاعا منه بمن لم يغلط ولم يتعظ . فان الاول كالقارح الذى أدبته العثرة ، وأصلحته الندامة . والثانى كالذى هو راكب للعزة وراكن الى السلامة . والعرب تزعم أن العظم اذا جبر من كسره ، عاد صاحبه أشد بطشا وأقوى يداً .

وقال ابن المقفع ، فيما يتأدب به السلطان : عود نفسك الصبر على ماخالفك من رأى ذوى النصيحة ، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ولا تُسَهِّلَنَّ سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والمروءة والعقل فى ستر ، لئلا ينتشر من ذلك مايجترىء به سفيهٌ ، أو يستخف به شانىء . واعلم أن رأيك لايتسع لكل شىء ففرغه لمهم مايعنيك ، وإن مالك لايتسع للناس فأخصص به أهل الحق ، وانّ كرامتك لاتطيق العامة فتَوَخّ بها أهل الفضل ، وأن ليلك ونهارك لايستوعبان حاجاتك ، وإن دأبت فيهما ، فأحسن قسمتهما بين عملك ودعتكَ واعلم أن ماشغلت من رأيك بغير المهم ، أزرى بك ، فى المهم ، وما صرفت من مالك فى الباطل ، فقدمه حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك الى أهل النقص ، أضربك فى العجز عن أهل الفضل . ان كان سلطانك عند جدَةِ دولة فرأيت أمراً استقام بغير رأى ، أو أعوانا أجزوا بغير نيل وعملا أنجح بغير حزم ، فلا يَغُرّنّك ذلك ، ولا تستنيمن اليه فان الأمر الجديد مما يكون له مهابة فى أنفس العوام ، وحلاوة فى قلوب قوم آخرين ، فيُعنى قوم على أنفسهم ، ويعنى قوم بما قبلهم ، ويستتب ذلك الامر غير طويل ، ثم تصير الشؤون الى حقائقها

وأصولها ، فما كان شيء من الأمر على غير أركان وثيقة ولا دعائم محكمة أوشك أن يتداعى ويتصدع . لاتكونن نزر الكلام والسلام ، ولاتبلغن افراط البشاشة فان احداهما من الكبر والأخرى من السخف .

ومن كلام الحكماء : اذا كان الملك مُخصناً للأسرار ، متخيراً لصالح الوزراء ، مَهيباً في أنفس العامة ، بعيداً أن يُعلَمَ مافي نفسه ، لا يسلم منه ذو جريمة جريمته ، ولا يضيع عنده بلاءٌ ، مقدِّراً لما يُنفِقُ وما يُنقد ، كان جديراً ألا يُسلب صالحَ ما أوتي .

قال سهل بن هارون : للسلطان سكرات ، فمنها الرضى عن بعض من يستوجب السخط ، ولذلك قيل قد خاطر من لَجَجَ في البحر ، وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان .

قال صاحب كليلة ودمنة : السلطان لا يقرب الرجال على قرب آبائهم ، ولا يباعدهم لبعدهم ، ولكنه ينزلهم على قدر ماعند كل امرىء منهم فيما يُنتفَعُ به ، وقد يكون الجرذ في البيت جاراً مجاوراً فيُنفى إذا كان ضاراً مؤذياً ، ولما كانت في البازى منفعة وهو وحشٌ اقتُني واتخذ .

وقال أفلاطن : الملك كالبحر تستمد منه الانهار ، فان كان عذبا عَذُبت ، وإن كان ملحاً ملحت .

وقد أكثر المتأخرون في هذا المعنى . قال أبو الفضل بن العميد : صفة كل زمان مُنبجِسة[1] من سجايا سلطانه

كتب ابرويز الى ابنه شيرويه من الحبس . ليكن من تختاره لولايتك

(١) انبجس الماء : انفجر .

امرا كان فى ضعة فرفعته ، وذا شرف وجدته مهتضماً فاصطنعته ، ولا تجعله امرأً أصبته لعقوبة فاتضع عنها ، ولا امرأً أطاعك بعد ما أذللته ، ولا أحداً ممن يقع فى خلدك إن ازالة سلطانك خير له من ثبوته . وإياك أن تستعمل ضرعاً غمراً [1] كثير اعجابه بنفسه وقلّت تجاربه فى غيره ، ولا كبيرا مُدبرا قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السنين من جسمه .

قال لقيط الأيادى فى مثله :

فقلّدُوا أمركم لله دَرُّكمُ ... رَحْبَ الذّراع بأمر الحرب مضطلعاً
لا مُترفاً إن رخاء العيش ساعده ... ولا إذا عضّ مكروهٌ به خشَعاً
ما زال يحلب دِرّ الدهر أشطره ... يكون مُتّبِعاً طوراً ومتبَعاً
حتى استمرت على شزر [2] مريرته ... مستحصد الرأى لا قحماً [3] ولا ضرعا

استشار عمر بن عبد العزيز ، فى قوم يستعملهم ، فقال له بعض أصحابه عليك بأهل العذر الذين إن عدلوا فهو ما رجوت فيهم ، وإن قصّروا قال الناس قد اجتهد عمر .

كتب على بن أبى طالب عليه السلام ، الى أهل البصرة . من كتاب له : وائن ألجأتمونى الى السير اليكم لأوقعنّ بكم وقعةً ، لا يكون يوم الجمل اليها الا ملعقة لاعق ، مع أنى عارف لذى الطاعة منكم فضله ولذي النصيحة

---

(١) الضرع ككتف : للذليل . والغمر : الجاهل الأبله .

(٢) الشّزْر : الشدة والصعوبة .

(٣) القحم : الشيخ المسن .

حقه ، غير متجاوز متهماً الى برىء ، ولا ناكثاً الى وفى ..»

هذا القول الفصل ، والفعل العدل ، لا كما قال زياد : والله لآخذنّ الوفى بالولى ، والسّمىّ بالسّمىّ حتى يلقى الرجل صاحبه فيقول . انج سعد فقد هلك سعيد .

قال عبد الملك بن مروان لأخيه عبد العزيز ، حين وجّهه الى مصر : تفقّد كاتبك وحاجبك وجليسك ، فان الغائب يُخبَر عنك بكاتبك ، والمتوسم يعرفك بحاجبك ، والخارج من عندك يعرفك بجليسك .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، اذا بعث عاملا اشترط عليه أربعاً : ألا يركب البراذين[1] ، ولا يلبس الرقيق[2] ، ولا يأكل النقى[3] ، ولا يتخذ بوابا .

وكان زياد اذا ولى رجلا ، قال له : خذ عهدك ، وسر الى عملك ، واعلم أنك مصروف رأس سنتِك ، وأنك تصير الى أربع خلال ، فاختر لنفسك ، أنّا إن وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بك لضعفك ، وسَلّمتك من مَعَرّتنا أمانتك . وإن وجدناك خائناً قويا ، استهنّا بقوتك وأحسنّا على خيانتك أدبَك ، فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غُرمَك ، وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين . وإن وجدناك قويا أميناً ، زدنا فى عملك ، ورفعنا لك ذكرك ، وكثّرنا مالك ، وأوطأنا عقبك .

ولى المهدى ربيعَ بن أبى الجهم ، فارسَ ، فقال له : يا ربيع آثر الحقّ ،

---

(١) مفرده بِرْذَون وهو ضرب من الدواب دون الخيل وأقدر من الحمر .

(٢) و (٣) يريد ألا يَترفّه فى الملبس والمأكل .

والزم الفصلَ ، وارفق بالرعية ، واعلم أن أعدل الناس من أنصف الناس من نفسه ، وأجورَهم من ظلمهم لغيره .

قال المنصور : الملوك تحتمل كل شيء الا ثلاث خلال ، افشاء السر ، والتعرض للحرم ، والقدح فى الملك .

كان يقال : طاعة السلطان على أربعة أوجه ، على الرغبة ، والرهبة ، والمحبة ، والديانة .

كان أنوشروان اذا ولّى رجلا ، أمر الكاتب أن يدع فى العهد موضع أربعة أسطر ، ليوقع فيها بخطه ، فاذا أتي بالعهد وقع فيه : سُسْ خيار الناس بالمحبة ، وامزُج للعامة الرغبةَ بالرهبة ، وسُسْ سفلة الناس بالاخافة

قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله : إنى لأجمع أن أخرج للمسلمين أمراً من العدل ، فأخاف ألا تحتمله قلوبهم ، فأخرج لهم معه طمعاً من طمع الدنيا ، فان نفرت القلوب من هذا ، سكنت الى هذا .

كتب الوليد بن عبد الملك الى الحجاج يأمره أن يكتب اليه بسيرته ، فكتب اليه : إنى أيقظت رأيي ، وأنمت هواى ، وأدنيت السيد المطاع فى قومه ، وليت الحرب الحازم فى أمره ، وقلّدتُ الخراج الموفرَ لأمانته ، وخصصت لكل خصم من نفسى قسما يعطيه حظاً من نظرى ولطيف عنايتى ، وصرفت السيف الى النَّطِفِ [1] المسيء ، فخاف المذنب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب .

قال معاوية : ينبغى أن يحترز الملك من خمس خصال ، لا يكون كذاباً ،

---

(١) النّطِف ككتف : الرجل المريب .

فانه اذا كان كذاباً فوعد لم يُرْجَ ، أو أوعد بشرٍّ لم يُخَف. ولا ينبغى أن يكون بخيلا ، فانه اذا كان بخيلا لم يناصحه أحد ، ولا تصلح الولاية الا بالمناصحة . ولا ينبغى أن يكون حديداً ، (١) فانه اذا كان حديداً مع القدرة هلكت الرعية . ولا ينبغى أن يكون حسوداً ، فانه اذا كان حسوداً لم يُشَرِّفْ أحداً ، ولا يصلح الناس الا على أشرافهم . ولا ينبغى أن يكون جباناً فانه اذا كان جبانا اجترأ عليه عدوه

قال الحسن : كان النبى صلى الله عليه وسلم يستشير حتى المرأة ، فتشير عليه بالشىء فيأخذ به .

قيل : لايكون الملك ملكا ، حتى يعاقب على صغير الذنوب ، ويعفو عن كبيرها . ومثله قول الشاعر .

تعفو الملوك عن العظـ ـيم من الذنوب لفضلها
ولقد تعاقب فى اليسـ ـير وليس ذاك لجهلها

وقال أبرويز : أطع من فوقك يطعك من دونك .

قال عمرو بن هند : الملوك يُشتمون بالأفعال لا بالأقوال ، ويسفهون بالأيدى لا بالألسن .

ومثله لمعبد بن علقمة :

وتجهل أيدينا ويحلُمُ رأينا ونشتم بالأفعال لا بالتكلم

قال مروان بن محمد ، لما أحيط به . والهفاه على دولة مانصرت ، وكفّ ماظفرت ، ونعمة ماشكرت !.. فقال له خادمه باسيل ، وكان من أشراف

---

(١) رجل حديد : حاد فى السن والفهم والغضب

الروم فوقع عليه سِباءٌ : من أغفل الصغير حتى يكبر، والقليل حتى يكثر، والخفى حتى يظهر ، أصابه هذا .

قال قابوس . لذة الملوك فيما لاتشاركهم فيه العامة من معالى الأمور.

وقال صالح بن سليمان: لاتستصغروا عدواً، فان العزيز ربما شرق بالذباب

قالت أم جَعونة ، ملك طخارستان ، لنصر بن سيار : ينبغى أن يكون للأمير ستة أشياء ، وزير يثق به ويُفضى اليه سِرَّه ، وحصن يلجأ اليه اذا فَزِع أنجاه (تعنى فرساً) ، وسيف اذا نازل الأقران لم يخنه ، وذخيرة خفيفة المحمل اذا نابته نائبة أخذها ، وامرأة اذا دخل اليها أذهبت هَمَّه ، وطباخ اذا لم يشته الطعام صنع له شيئاً يشتهيه .

العتابى فى الرشيد :

أيامن له كيف تضُمُّ بنانها ... عصا الدين ممنوعاً من البرى عودها

وعين محيط بالبرية طرفها ... سواء عليها قربها أو بعيدها

وقالوا . من حق الملك أن يفحص عن أسرار الرعية . وكان أزدشير متى علم شيئا قال لأرفعهم وأوضعهم ، كان عندك فى هذه الليلة كيت وكيت حتى كان يقال ، يأتيه ملك من السماء ، وماذاك الا لتصفحه وتيقظه . وكان عمر رضى الله عنه علمه بمن نأى عنه ، كعلمه بمن بات معه على وساد واحد . واقتفى معاوية أثره ، وكذلك زياد . وتعرَّف الى زياد رجل ، فقال أتتعرف الىَّ ؟ وأنا أعرف منك بأبيك وأمك ، وأعرف هذا البرد الذى عليك . فرعب الرجل حتى أرعد .

كتب على بن أبى طالب عليه السلام عهداً لمالك بن الاشتر النخعى ، حين ولاه مصر، جمع فيه بين حاشيتى التقوى والسياسة ، على بعد أقطارها

وجدته يغنى عن كثير من كلام الحكماء والقدماء ، وهو مع فرط الاطالة ، مأمون الملالة ، لجمعه بين البلاغة ، والمعانى الرائعة . ولولا رغبة الناس فى تفاير الكلام ، وميل النفوس الى التنقل فى الألفاظ ، لاكتفيت بايراد هذا العهد من غيره ، اذ كان حاويا لأشتات الآداب والسياسات ، جامعا للأسباب التى تلزم الملوك والولاة .

والعهد

هذا ما أمر عبد الله على ، أمير المؤمنين ، مالك بن الحارث الاشتر ، فى عهده اليه ، حين ولاه مصر جباية خراجها ، وجهاد عدوها ، واستصلاح أهلها ، وعمارة بلادها . أمره بتقوى الله ، وإيثار طاعته ، واتباع ما أمر به كتابه ، من فرائضه وسننه ، التى لايسعد أحد إلا باتباعها ، ولا يشقى الا مع جحودها أو اضاعتها ، وان ينصر الله بيده وقلبه ولسانه ، فانه جل اسمه قد تكفل بنصر من نصره ، واعزاز من أعزه ، وأمره أن يكسر من نفسه عند الشهوات ويزعها عند الجمحات ، فان النفس لأمارة بالسوء الا مارحم الله .

ثم اعلم يامالك ! إنى قد وجهتك الى بلاد ، قد جرت عليها دول قبلك ، من عدل وجور ، وان الناس ينظرون من أمورك ، فى مثل ما كنت تنظر فيه من أمور الولاة قبلك ، ويقولون فيك ما كنت تقول فيهم ، وانما يُستدل على الصالحين بما يجرى الله لهم على ألسن عباده . فليكن أحب الذخائر اليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هواك ، وشح بنفسك عما لايحل لك ، فان الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت وكرهت . وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم ، واللطف بهم ، ولا تكونن عليهم سَبُعاً ضارياً ،

تغتنم أكلهم ، فانهم صنفان : إما أخ لك فى الدين ، وإما نظير لك فى الخلق ، يَفرط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ، ويُؤتى على أيديهم فى العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذى تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فانك فوقهم ، ووالى الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولّاكَ ، وقد استكفاك ، أمرهم وابتلاك بهم . لا تَنْصِبَنَّ نفسك لحرب الله ، فانه لا يَدَ لك بنقمته ، ولا غنىً بك عن عفوه ورحمته . ولا تندمَنَّ على عفو ، ولا تبجَّحَنَّ بعقوبة ، ولا تسْرعَنَّ الى بادرة وجدت عنها مندوحة . ولا تقولنَّ انى مُؤَمَّرٌ آمر فأُطاع ، فان ذلك ادغال فى القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير ، فاذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو مَخِيلةً[1] ، فانظر الى عظم ملك الله تعالى فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك ، فان ذلك يطامن[2] اليك من طماحك ، ويكف عنك من تكربك ، ويفىء[3] اليك بما عزَبَ[4] عنك من عقلك .

اياك ومساماة الله فى عظمته ، والتشبه به فى جبروته ، فان الله يذلّ كل جبار ، ويهين كل مختال . أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ، ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هوى من رعيتك ، فانك إلا تفعل تظلم ، ومن ظلم من عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أدحض حجته ، وكان لله حربا حتى ينزع ويتوب . وليس شىء أدعى الى تغيير نعمة الله ،

---

(١) المخيلة : الكبر .
(٢) طامن الشىء : سكّنه .
(٣) فاء يفىء فيئاً : رجع .
(٤) عزب : بعُد وغاب وخفى .

وتعجيل نقمته ، من إقامة على ظلم . وليكن أحب الأمور اليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضى الرعية ، فان سخط العامة يجحف برضا الخاصة ، وان سخط الخاصة يغتفر مع رضا العامة . وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤنة في الرخاء ، وأقل معونة له في البلاء ، وأكره للانصاف ، وأسأل بالالحاف ، وأقل شكراً عند الاعطاء ، وأبطأ عذراً عند المنع ، وأخف صبراً عند ملمات الدهر ، من أهل الخاصة . وانما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعُدّة للأعداء العامة من الأمة . فليكن صفوك لهم ، وميلك معهم . وليكن أبعد رعيتك منك ، وأشنأهم[1] عندك ، أطلبهم لمعايب الناس ، فان في الناس عيوباً ، الوالي أحق مَنْ سَتَرها ، فلا تكشفن عما غاب عنك منها ، فانما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت ، يستر الله عليك ما تحب ستره من عيبك أطلق عن الناس عقدة كل حقد ، واقطع عنهم سبب كل وتر[2] ، وتغاب عن كل مالا يصح لك ، ولا تعجلنّ الى تصديق ساع ، فان الساعي غاش ، وان تشبَّهَ بالناصحين . ولا تدخلن في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزين لك الشَّرَهَ بالجور . فان البُخل والجبن والحِرْص غرائزُ شتى يجمعها سوء الظنّ بالله . إن شرَّ وُزَرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً ، ومن شَرِكَهم في الآثام ، فلا يكوننّ لك بِطانةً فانهم أعوان الأثمة وإخوان

(١) أشنأهم : أبغضهم
(٢) الوتر : الخصومة

الظَّلَمة ، وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مِثلُ آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لايعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على إثمه ، أولئك أخفّ عليك مؤونةً وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفاً وأقلّ لغيرك إلفا . فاتخذ أولئك خاصّة لخلواتك وحفلاتك . ثم ليكن أثرَهم عندك أقولَهم لك بمرّ الحق ، وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كرِه الله لأوليائه ، واقعاً ذلك من هواك حيث وقع . والصَقْ بأهل الورَع والصدْق ثم رُضْهم على ان لا يطروكَ ولا يبجحوك بباطل لم تفعله ، فان كثرة الاطراء تحدث الزَّهوَ وتُدنى من العِزَّة ولا يكونَنّ المحسن والمسيء عندك بمنزلةٍ سواءً فان فى ذلك تزهيداً لأهل الاحسان فى الاحسان ، وتدريبا لأهل الاساءة على الاساءة . وألزِمْ كلا منهم ما ألزَمَ نفسه . واعلم أنه ليس شيء أدعى الى حسن ظن والٍ برعيته من إحسانه اليهم وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبلهم . فليكن منك فى ذلك أمرٌ يجمعُ لك حسن الظن برعيتك فان حسن الظن يقطعُ عنك نصبا طويلا ، وان أحقّ من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده ، وإن أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده .

ولا تنقُض سنّةً صالحة عمل بها صدور هـذه الامة واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعيّة ، ولا تحدثنّ سنة تضرُّ بشيء من ماضى تلك السُّنن ، فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها .

وأكثِرْ مُدارَسة العُلماء ومُناقَشة الحُكماء فى تثبيت ما صَلَح عليه أمرُ بلادك وإقامة ما استقام به النّاس قبلك واعلم أن الرَّعيَّة طبقات لايُصلح بعضُها إلا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض فمنها جُنود الله ، ومنها كتاب العامة والخاصّة ، ومنها قُضاة العدْل ، ومنها عمّال الانصاف والرِّفق ، ومنها

أهلُ الجزية والخراج من أهل الذمة ومُسْلِمة الناس، ومنها التجار وأهلُ الصناعات، ومنها الطبقة السُّفلى من ذوى الحاجة والمَسكنة، وكلاً قد سمّى الله سهمه ووضع على حدّه فريضةً فى كتابه أو سُنّة نبيه صلى الله وسلم عليه وآله عَهْداً منه عندنا محفوظا. فالجنود باذن الله حُصون الرّعيّة وزين الولاة وعزّ الدين وسُبُلُ الأمن. وليس تقوم الرّعيّة إلا بهم ثم لا قِوام للجنود إلا بما يُخرجُ الله تعالى لهم من الخراج الذى يَقوَوْن به فى جهاد عدوّهم ويعتمدون عليه فيما يُصلحهم ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قِوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب. لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامّها ولا قِوام لهم جميعاً إلا بالتُّجّار وذوى الصناعات فيما يجتمعون عليه من مَرافِقهم ويُقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من التَّرَفّق بأيديهم مالا يبلغه رِفق غيرهم ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يُحقّ رِفْدُهم ومعونتهم وفى الله لكلّ سَعَةٌ ولكلّ على الوالى حق بقدر ما يُصلِحه وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك إلا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نَفسه على لزومه الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثَقُل فوَلّ من جنودك أنصحَهم فى نفسكَ لله ولرسوله ولإمامِكَ وأطهرَهم جيْباً وأفضلهم حِلماً ممن يبطئ عن الغضب ويستريح الى العُذْر ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء ممن لا يثيره العُنف ولا يقعد به الضعف ثم ألصق بذوى المروآت والأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسَنَة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فانهم جِماعُ الكرم وشُعَبُ العُرْف ثم تفقّدْ من أمورهم ما يتفقده الوالدان من ولدهما ولا يَتفاقمنّ فى نفسك

شيء قوّيتهم به ولا تحقرنّ لطفاً تتعاهدهم به وإن قلّ، فانه داعية الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقّد لطيف أمورهم اتكالاً على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعاً ينتفعون به وللجسيم موقعاً لا يستغنون عنه وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم فى معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم حتى يكون همهم همّاً واحداً فى جهاد العدو فان عطفك عليهم يعطّف قلوبهم عليك (وإن أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودّة الرعية وأنه لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صدورهم)[1] ولا تصحّ نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلّة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدّتهم فافسح فى آمالهم وواصل فى حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم فان كثرة الذكر لحسن فعالهم تهزّ الشجاع وتحرّض الناكل ان شاء الله تعالى ثم اعرف لكلّ امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىء الى غيره ولا تقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرىء الى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرىء أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً وأردد الى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب ويشتبه عليك من الأمور فقد قال الله سبحانه لقوم أحب ارشادهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول) فالردّ الى الله الأخذ بمحكم كتابه والردّ الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيّتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه

(١) هذه الجمل لم نجدها فى الاصل

الخصوم ولا يتمادى فى الزلّة ولا يحصر عن الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تُشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه ، أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرّماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشيف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه إطراء ولا يستميله إغراء وأولئك قليل . ثم أكثِرْ تعاهُد قضائه وافسح له فى البذل ما يُزيح علّته وتقلّ معه حاجته الى الناس وأعطه من المنزلة لديك مالا يطمع فيه غيره من خاصتك لتأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظُر فى ذلك نظراً بليغاً فان هذا الدّين قد كان أسيراً فى أيدى الأشرار يُعمل فيه بالهوى وتُطلب به الدنيا ثم انظر فى أمور عمّالك فاستعملهم اختباراً ولا تُوَلّهم محاباة وأثَرَةً فانهم جِماعٌ من شُعَب الجوْر والخيانة . وتوَخَّ منهم أهل التجْربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام فانهم أكرم أخلاقا وأصحّ أعراضا وأقل فى المطامع اشرافاً وأبلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فان ذلك قوة لهم على اصطلاح أنفسهم ، وغنًى لهم عن تناول ماتحت أيديهم ، وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أوخانوا أمانتك ثم تفقّد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهُدَك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الامانة والرفق بالرعية. وتحفظ من الاعوان فان أحد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهداً فبسطتَ عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة . وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم الا بهم لان الناس

كلهم عيال على الخراج وأهله . وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لأن ذلك لايدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره قليلا . فان شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالّة أو إحالة أرض اغتمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم. ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك فى عمارة بلدك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجّحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم ورفقك بهم فربما حدث من الامور ما اذا عوّل فيه عليهم من بعدُ احتملوه طيبة أنفسهم به فان العمران يحتمل ماحملته وانما يأتى خراب الأرض من إعواز أهلها وانما يُعوز أهلها لاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر. ثم انظر فى حال كتّابك فول على أمورك خيرَهم واخصص رسائلك التى تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لاتبطره الكرامة فيجترىء بها عليك فى خلاف لك بحضرة ملاءٍ ولا تقصر به الغفلة عن ايراد مكاتبات عُمّالك عليك واصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ولا يضعف عقداً اعتقده لك ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك ولايجهل مبلغ قدر نفسه فى الامور فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل. ثم لايكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنُّعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد

لأحسنهم فى العامة أثراً وأعرفهم بالأمانة وجها فان ذلك دليلٌ على نصيحتك لله ولمن وليت أمره واجعل لرأس كل من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه صغيرُها ومهما كان فى كُتّابك من عيب فتغابيتَ عنه ألزمتَه ثم استوص بالتُّجّار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فانهم موادّ المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح فى برّك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترؤون عليها فانهم سلمٌ لا تخاف بُائقته وصلحٌ لا تخشى غائلته وتفقّدْ أمورهم بحضرتك وفى حواشى بلادك واعلم مع ذلك أن فى كثير منهم ضيقا فاحشا وشحّا قبيحا واحتكاراً للمنافع وتحكما فى البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيبٌ على الولاة فامنع الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم منع منه وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرةً بعد نهيك اياه فنكلْ به وعاقب فى غير إسراف ثم اللهَ اللهَ فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البُؤسى والزّمنى فان فى هذه الطبقة قانعا ومعتَرًّا واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى الاسلام فى كل بلد فان للأقصى منهم مثلَ الذى للأدنى وكلٌّ قد استرعيت حقه فلا يشغلنّك عنهم نظر فانك لا تُعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعّر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصلُ اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحتقرُه الرجال ففرّغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالأعذار الى الله سبحانه يوم تلقاه فان هؤلاء من بين الرعية

أحوج إلى الانصاف من غيرهم وكلٌّ فاعذر إلى الله فى تأدية حقه اليه وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لاحيلة له ولا ينصب للمسألة نفسه وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق موعود الله لهم واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول فى غير موطن (لن تقدس أمة لايؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعىّ ونحِّ عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته وأعط ما أعطيت هنيئا وامنع فى إجمال وإعذار ثم أمور من أمورك لابدّ لك من مباشرتها، منها إجابة عمالك بما يعيا عنه كتابك ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك وامض لكل يوم عمله فان لكل يوم مافيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام وإن كانت كلها لله اذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية. وليكن فى خاصة ماتخلص لله به دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة فأعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ووفِّ ماتقربت به الى الله سبحانه من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ واذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن مُنفراً ولا مضيعا فان فى الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وجهنى اليمن كيف أصلى بهم فقال (صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما) وأما بعد فلا تطولن

قيل : رفع رجل الى المأمون رقعة يسأله اجراء الرزق ، فقال : كم عيالك ؟ فزاد فى العدد فلم يوقع . ثم كتب اليه فى السنة الثانية ، فصدق ، فوقّع .

كتب عمر بن عبد العزيز الى عامله : لا تعاقب عند غضبك ، واذا غضبت على رجل فاحبسه ، فاذا سكن غضبك فأخرجه فعاقبه على قدر ذنبه ، ولا تجاوز به خمسة عشر سوطاً .

وكان زياد ، اذا أغضبه رجل ، حبسه ثلاثة أيام ثم دعا به ، فان رأى عقوبة عاقبه ، وقال : انما منعنى من عقوبته أول يوم مخافة أن أكون عاقبته للغضب . وان لم ير عقوبة خلّى سبيله .

قيل : كانت الملوك تختار لرسائلها العاقل الجميل .

قيل لحكيم : أى الرسل أنجح ؟ قال : الذى له جمال وعقل .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . اذا أبردتم الىّ بريداً فاجعلوه حسن الوجه حسن الاسم .

الفصل الثالث

سياسة الوزراء والكتاب وأتباع السلطان
فى خدمة ولاتهم وآداب نفوسهم

قالوا : من صحب الملوك وقرب منهم، ينبغى أن يكون جامعاً للخلال المحمودة ، فأولها العقل فانه رأس الفضائل ، والعلم فانه من ثمار العقل ، ولا تليق صحبة الملك بأهل الجهل ، والود فانه خلق من أخلاق النفس يولده العدل فى الانسان لذى وده ، والنصيحة وهى تابعة للود وهو الذى يبعث عليها ، والوفاء فانه شيمة لا تتم الصحبة الا بها ، وحفظ السر وهو من صدق الوفاء ، والعفة عن الشهوات والأموال ، والصرامة وهى شدة القلب فان الملوك لايصحبهم أولوا النكول[1] ولا ينال الجسيم من الأمور الا الشجاع النَّجد ، والصدق فانه من لايصدُق يكذب ومضرة الكذب لاتتلافى ، وحسن الزى والهيأة فان ذلك يزيد فى بهاء الملك ، والبشر فى اللقاء فانه يتألف به قلب من يلاقيه وفى الكلوح[2] تنفير عن غير ريبة، والأمانة فيما يُستحفظ، ورعاية الحق فيما يستودع، والعدل والانصاف فان العدل يصلح السرايروُيجمل الظواهر وبه يخاصم الانسان نفسه اذا

---

(١) أى أصحاب الضعف والجبن

(٢) كلح وجهه كلوحاً وكلاحاً . تكسر فى عبوس أو عبس فأفرط فى تعبسه وقيل الكلوح فى الأصل بُدُوُّ الاسنان عند العبوس .

دعته الى أمر لايحسن ركوبه ، وينبغى له أن يجانب أضداد هذه الخلال وألا يكون حسوداً فان الحسد يفسد مابينه وبين الناس ، وليفرق بين الحسد والمنافسة فانهما يشتبهان على من لايعقل ، وأن يخلو من اللجاج والمحك فان ذلك يضر بالأفعال اذا وقع فيها اشتراك ، وألا يكون بَذَّاخاً ولا متكبراً فان البذخ [١] من دلائل سقوط النفس والكبر من دواعى المقت ، وألا يكون حريصا فان الحرص من ضيق النفس وشدة الطيش والبعد عند الصبر ، وينبغى ألا يكون فَدَماً [٢] وخِماً [٣] ولا ثقيل الروح فانها صفة لاتليق بمن يلاقى الملوك وأبداً تكون سبباً للمقت من غير جُرْم. وبالجملة فالفضائل والأخلاق المحمودة كثيرة ، وأولى الناس بطلب غاياتها الملوك كما هم الغاية ، ثم أتباعهم ، ثم سائر الرعية .

اذا أردت أن يُقبل قولك ، فصحح رأيك ولا تشوبنَّه بشىء من الهوى ، فان الرأى يقبله منك العدو والهوى يرده عليك الصديق .

قالت القدماء : ان وجدت عن صحبة الملك غنى فاغن نفسك عنه واعتزله جهدك ، فان من يأخذ للسلطان بحقه يَحُل بينه وبين لذة الدنيا وعمل الآخرة ، ومن لايأخذه بحقه يحتمل الفضيحة فى الدنيا والوزر فى الآخرة.

قال على بن أبى طالب ، عليه السلام : صاحب السلطان كراكب الأسد ، يُغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه .

وقال زياد بن أبيه يوماً لأصحابه : من أنعم الناس عيشاً ؟ قالوا : الامير ،

---

(١) التكبر والبذاخ المتكبر

(٢) بعيد الفطنة

(٣) الرجل الثقيل

قال : قولوا ، قالوا : الأمير وأصحابه ، قال : كلا إن لأعواد المنبر لفزعةً ، وإن لقعقعة لجام البريد لروعة ، ولكن أنعم الناس عيشاً رجل لا نعرفه ولا يعرفنا ، له صنعة تموّنه ، فانا إن عرفناه أسهرنا ليله وأتعبنا نهاره .

وقيل : ثلاثة لا يستطيعهما أحد إلا بمعونةٍ وارتفاع همةٍ وعظم خطرٍ ، صحبة الملوك ، وتجارة الماء ، ومناجزة العدو .

وقال أفلاطن : إذا ثقل على الرئيس الوعظ ، ولجّ فى ترك الانقياد للناصح ، وآثر التفويض ، واحتقر العدو ، فاطلب الخلاص منه .

وقد جاءت الشريعة برفض الدنيا ، والتقليل منها ، والاكتفاء بما يزوّد للآخرة ، والتحوّط مما تكون التبعات . ولا شيء أدعى الى ذلك من خدمة السلطان لاسيما فى هذا الأوان .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنا اذا أمّرنا رجلا وفرضنا له رزقاً فما أصاب من شيء بعد كان غُلولا . وفى حديث آخر : من وَلِىَ لنا شيئا فلم يكن له امرأة فليتزوج ، ومن لم يكن له مسكن فليتخذ مسكناً ، ومن لم يكن له مركب فليتخذ مركبا ، ومن لم يكن له خادم فليتخذ له خادما فمن أعدّ سوى ذلك جاء يوم القيامة غالاً سارقاً

ولعلى عليه السلام من كتاب الى بعض عماله : أما بعد ، فانك ممن أستظهرُ به على اقامة الدين ، وأقمع به نخوة الاثيم ، وأشدُّ به لهاة [1] الثغر المخوف ، فاستعن بالله على ما أهمّك ، وأخلِطِ الشدّةَ بضغث [2] من

---

(١) اللهاة قطعة لحم تتدلى فى سقف الحلق والثغر الفم وقد كنى بذلك عن القيام بالدفاع عن الثغر وهو الميناء البحرية

(٢) بضغث بخلط أى تخلط الشدة باللين

اللين ، وارفق ما كان الرفق أوفق ، واعتزم بالشدة حين لايغنى عنك الا الشدة ، واخفض للرعية جناحك ، وألن لهم جانبك ، وآس بينهم فى اللحظة والنظرة والاشارة والتحية ، حتى لايطمع الاقوياء فى حَيْفك ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك .

ومن كلام الحكماء : للكاتب على الملك ثلاث ، رفع الحجاب عنه ، واتهام الوشاة عليه ، وافشاء السر اليه .

وقال ابرويز لكاتبه : أكتم السر ، وأصدق الحديث ، واجتهد النصيحة ، واحترس بالحذر ، فان لك على ألا أعجل بك حتى أستأنى لك ، ولا أقبل عليك قولا حتى أستيقن ، ولا أطمع فيك فتغتال .

قال الزهرى : ثلاث اذا كن فى القاضى فليس بقاض ، اذا كره اللوايم ، وأحب المحامد ، وكره العزل .

وقال ابن موهوب : اذا لم يكن فى القاضى ثلاث خصال فليس بقاض ، يشاور وان كان عالما ، ولا يسمع شكية فى أحدٍ الا ومعه خصمه ويقضى اذا علم .

عزل عمر بن عبد العزيز قاضياً فقال له : لِمَ عزلتنى ؟ قال . بلغنى أن كلامك أكثر من كلام الخصمين .

قال الاسكندر لصاحب حرسه : إنك مُستَوْدِع روحى فاحفظ هذه المنزلة لنفسك وعقبك . وقال لحاجبه : إنك مالك وجهى فانف قذاه أبصر لك . وقال لطباخه . انك مُسَلَّط على مروءتى فاجتهد احمدك . وقال لكاتبه : إنك مُصرِّف عقلى فاحفظنى بك . وقال لنديمه : انك روضة أنسى فاحذر الهيج والذبول تُدِم نُزهى فيك واستراحى اليك

قال الحجاج : دلونى على رجل أوليه الشرطة ، فقيل له : أى الرجال تريد ؟ فقال : أريد رجلا دائم العبوس ، طويل الجلوس ، ثمين الأمانة ، عجف الخيانة ، لا يحنق فى الحق على جرأةٍ ، تهون عليه سبال الاشراف فى الشفاعة . فقيل له عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمى ، فارسل اليه فاستعمله . فقال لست أقبلها إلا أن تكفينى عيالك وولدك وحاشيتك ، فقال . يا غلام من طلب منهم حاجة فقد برئت منه الذمة . قال الشعبى : فلا والله ما رأيت صاحب شرطة قط مثله . كان لا يحبس إلا فى الدين . وكان اذا أُتى برجل قاتل بحديدة وشهر سلاحا قطع يده ، واذا أُتى بنباش حفر له قبراً ودفنه فيه ، واذا أتى برجل قد أحرق على قوم منازلهم أحرقه ، واذا أتى برجل يشك فيه وقد قيل أنه لص ولم يكن منه شىء ضربه ثلاثمائة سوط ، فربما أقام أربعين ليلة لا يؤتى بأحد ، فضم اليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

وتحدث المأمون يوماً فضحك اسحاق بن ابراهيم المصعبى ، فقال . ياسحاق أوهلك لشرطى فتضحك خذوا سواده وسيفه ، ثم قال . أنت بالشرابى أشبه ، فضعوا منديلا على عاتقه . فقال اسحاق : أقلنى ياأمير المؤمنين ، قال : أقلتك . فما ضحك اسحاق بعدها .

وكتب أمير المؤمنين على كرم الله وجهه الى قُثم بن العباس وهو عامله على مكة : أما بعد ، فأقم للناس الحج ، وذكّرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفتِ المستفتى ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم . ولا يكن لك الى الناس سفير الا لسانك ، ولا صاحب الا وجهك ، ولا تحجبن ذا حاجة عن

لفائك بها ، فانها إن ذيدت[1] عن أبوابك فى أول وردها لم تُحمد فيما بعد على قضائها . وانظر الى ما اجتمع عندك من مال الله ، فاصرفه الى من قِبَلِك من ذى العيال والمجاعة ، مصيباً به مواضع المغافر والخِلّات . وما فضل عن ذلك فأحمله الينا لنقسمه فيمن قِبَلَنا . ومُرْ أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجراً ، فان الله تعالى يقول: سواءٌ العاكف فيه والباد ، فالعاكف المقيم به ، والباد الذى يحج اليه من غير أهله ، وفقنا الله واياك لمحابّه والسلام

قال ابن عباس ، قال لى أبي: يابنى إنى أرى أمير المؤمنين عمر يستخليك ويستشيرك ويقدمك على كثير من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وانى أوصيك بخلال ثلاث ، لا تُفْشِينَّ له سِرًّا ، ولا يجرب عليك كذبا ، ولا تغتب عنده أحداً . قال الشعبى قلت لابن عباس : كل واحدة منها خير من الف ، قال . أي والله ومن عشرة آلاف

قالت القدماء : إقبال السلطان تعب وإعراضه مَذَلّة .

وقال بعضهم : السلطان إذا أرضيته أتعبك ، واذا أغضبته أعطبك .

قال الفضل بن سهل . من أحب المنزلة عند سلطانه فليكفه ، ومن أحب المزيد من النعم فليشكر .

قال احمد بن أبى خالد للمأمون لما هَمَّ أن يستوزره : اجعل بينى وبين العامة منزلة يرجوها الصديق ويخافها العدو ، فما بعد الغايات الا الآفات .

وهذا الكلام أكثر معانيه قد سبق ايرادها فى أماكن متفرقة من هذا الفصل الا أنى وجدته هاهنا أبلغ فلزمنى اثباته

---

(١) مُنِعَت

الفصل الرابع

الآداب والسياسة التى تصلح للجمهور

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا مال أعود من العقل ، ولا وحدة أوحش من العُجب ، ولا عقل كالتدبير ، ولا حزم كالتقوي ، ولا قرين كحسن الخلق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا تجارة كالعمل الصالح ، ولا ربح كثواب الله ، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزهد فى الحرام ، ولا علم كالتفكر ، ولا عبادة كأداء الفرائض ، ولا ايمان كالحياء والصبر ، ولا حسب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم ، ولا مظاهرة كالمشاورة ، فاحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، واذكر الموت وطولَ البِلى .

وقال صلى الله عليه وسلم : من عامل الناس فلم يظلمهم ، وحدثهم فلم يكذبهم ، ووعدهم فلم يخلفهم ، فهو ممن كملت مروءته ، وظهرت عدالته ، ووجبت أخوته .

ومن كلامه صلى الله عليه وسلم . من يزرع الشر يحصد ندامة . من مشى منكم الى طمع فليمش رويداً . ثق بالناس رويداً . دع ما يريبك الى مالا يريبك . إياكم والظن فان الظن أكذب الحديث . مداراة الناس صدقة . الاقتصاد نصف العيش وحسن الخلق نصف الدين . لا تظهر الشماتة بأخيك ، فيرحمه الله ويبتليك . لا تباغضوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا وكونوا

عباد الله اخواناً . عليكم بالرفق ، فانه ما خالط شيئا إلا زانه ، ولا فارقه الا شانه . ترك الشر صدقة . اياك ومايُعتذَرُ منه . (وما اكثر ما تحت هذه الكلمة الوجيزة من المعانى !) ومن كلامه صلى الله عليه وسلم : لو أن ابن آدم هرب من رزقه كما يهرب من الموت ، لأدركه رزقه كما يدركه الموت . إذا كنتم ثلاثة فلا يتناج اثنان دون صاحبهما فان ذلك يحزُنه .

ومن كلامه ، صلى الله عليه وسلم : من كنوز البر كتمان المرض والمصائب والصدقة . وقد روى عن سفيان ألفاظ تقارب هذه قال : ثلاثة من الصبر ، لا تحدث بمصيبتك . ولا بوجعك ، ولا تُزَكّ نفسك .

وقال على بن أبي طالب ، عليه السلام : بكثرة الصمت تكون الهيبة ، وبالنصفة يكثر المواصلون لك ، وبالافضال تعظم الاقدار ، وبالتواضع تتم النعمة ، وباحتمال المؤن يكون السؤدد ، وبالسيرة العادلة يقهر المناوىء ، وبالحلم عن السفيه يكثر الانصار عليه .

وقال أيضاً : من حاسب نفسه ربح ، ومن غفل عنها خَسِرَ ، ومن خاف أمِنَ ، ومن اعتبر أبصر ، ومن أبصر فهم ، ومن فهم علم .

ومن كلامه ، كرم الله وجهه : اتقوا شرار النساء ، وكونوا من خيارهن على حذر . لا تطيعوهن فى المعروف حتى لا يطمعن فى المنكر .

وله عليه السلام آداب كثيرة مأثورة من هذا الباب سنذكرها متفرقة فيه

قال محمد بن ادريس الشافعى ، رضى الله عنه : الانقباض عن الناس مكسبة للعداوة ، والانبساط اليهم مجلبة لقرناء السوء ، فكن بين المنقبض والمنبسط

قيل عشرة خصال فى عشرة أصناف من الناس أقبح منها فى غيرهم :

الضيق فى الملوك ، والغدر فى الأشراف ، والكذب فى القضاة ، والخديعة فى العلماء ، والغضب فى الأبرار ، والحرص فى الأغنياء ، والسفه فى الشيوخ ، والمرض فى الأطباء ، والتهزىء فى الفقراء ، والفخر فى القراء .

قال أكثم بن صيفى ، فيما وصى به أهله : تناءوا فى الديار ، وتواصلوا فى المزار .

قال صلى الله عليه وسلم : ما استودع الله عبداً عقلا الا استنقذه به يوماً ما .

وقال علىٌّ عليه السلام ، لابنه الحسن : يابنى ! احفظ عنى أربعاً ، وأربعاً لا يضرك ما عملت معهن : إن أغنى الغنى العقل ، وأفقر الفقر الحمق ، وأوحش الوحشة العجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق . يابنى ! إياك ومصاحبة الأحمق فانه يريد أن ينفعك فيضرك ، ومصادقة البخيل فانه يقعد عنك أحوج ما تكون اليه ، وإياك ومصادقة الفاجر فانه يبيعك بالتافه ، وإياك ومصادقة الكذاب فانه كالسراب يقرب عليك البعيد ويبعد عنك القريب

وكان الحسن بن الحسن يقول : لسان العاقل من وراء قلبه ، فاذا عرض عليه القول نظر ، فان كان صواباً قال والا أمسك ، ولسان الاحمق أمام قلبه ، فاذا عرض له القول قال له أو عليه .

وقيل لعلىّ عليه السلام : صف لنا العقل ، فقال : يضع الشىء مواضعه . فقيل صف لنا الجهل ، فقال . قد فعلت ـ يعنى أنه لا يضع الشىء مواضعه .

وقال على كرم الله وجهه : الحلم غطاء ساتر ، والعقل حسام قاطع ، فاستر خلل خلقك بحلمك ، وقاتل هواك بعقلك .

وقيل : ظن العاقل كهانة .

وقال جعفر بن محمد : كل الأشياء تحتاج الى العقل الا شيء واحد، قيل ما هو ؟ قال : الدَّوَل

وأنشد الخليل:

إذا كمَّلَ الرحمن للمرء عقله ، فقد كملت أخلاقه وضرايبه.
يَزِينُ الفتى فى الناس صحة عقله ، وان كان محظوراً عليه مكاسبه.
ويُزْرى به فى الناس قلة عقله ، وان كرمت أعراقة ومناسبه.
يعيش الفتى بالعقل فى الناس، انّه على العقل يجرى علمه وتجاربه .

من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم : البلاء مُوَكَّلٌ بالمنطق . من خزن لسانه رفع الله شانه .

وقال على عليه السلام : الكلام فى وثاقك مالم تتكلم به ، فاذا تكلمت به صرت فى وثاقه ، فاخزُن لسانك كما تخزن ذهبك وورقك ، فرب كلمة سلبت نعمة . وطلبت نقمة

وقد قال أيضا : لا خير فى الصمت عن الحكم ، كما أنه لا خير فى القول بالجهل .

وقال محمد بن المنكدر . لأن أسمع أحب الىَّ من أن أتكلم ، لأن المستمع يتنقى والمتكلم يتوقى

وقيل لرجل من كلب ، طويل الصمت : بحق ما سُميتم خُرْسَ العرب ! فقال : أسكُتُ لأسلم ، وأسْمَعَ فأغنم .

وقال الحسن بن على: قد أكثر من الهيبة الصامت.

وقال أبو بكر بن عياش : اجتمع أربعة ملوك ، ملك فارس ، وملك الروم ، وملك الهند ، وملك الصين ، فتكلموا بأربع كلمات كأنما رمى بها

عن قوس واحدة . فقال أحدهم : أنا على قول مالم أقل أقدر منى على رَدّ ما قلت : وقال الآخر : الكلمة إذا قلتها ملكتنى واذا لم أقلها ملكتها . وقال الآخر : لا أندم على مالم أقل وقد أندم على ماقلت . وقال الآخر :

عجبت لمن يتكلم بالكلمة ان رُفعت عليه ضَرّته وان لم ترفع عليه لم تنفعه

ومنه قول الشاعر :

والقول لاتملكه اذا نمى كالسهم لايملكه رام رمى

وقال الآخر :

فداويته بالحلم، والمرء قادرٌ على نفسه، مادام فى كفه السهم

والى هذا ذهب عامر الشعبي حيث يقول :

وانك على ايقاع مالم توقع أقدر منك على رد ما أوقعت

وقال الخطفى ، جَدُّ جرير :

عجبت لازراء العيِّ بنفسه وصمت الذى قد كان بالقول أعلما

وفى الصمت ستر للعَيِّ وإنما صحيفة لُبِّ المرء أن يتكلما

وقال أبو نواس :

مت بداء الصمت خير لك من داء الكلام

ربما استفتحت بالنُّـــطق مغاليق الحمام

قال ابن عباس رحمه الله : الهوى إلَهٌ معبود . وقرأ : (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه) ويكفى من ذم الهوى قوله عز وجل : (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) ومن كلام جعفر بن محمد عليه السلام : الهوى يقظان والحزم نائم .

وقال عمرو بن العاص لمعاوية : من أصبر الناس ؟ قال من كان رأيه رادًا لهواه .

وقال اعرابى : الهوى الهوان ولكن غُلط باسمه

وقال آخر : العقل وزير ناصح ، والهوى خادم كذوب .

وقال شاعر :

اذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى الى بعض ما فيه عليك مقال

وقال الآخر : إعص الهوى وأطع من شئت

وقال حاتم :

وإنك إن أعطيتَ بطنك سؤله وفرجك ، نالا منتهى الذم أجمعا

وقال الأخطل :

وإن امرأ لا ينثنى عن غوايةٍ اذا ما اشتهتها نفسه لجهول

قال أزدشير : أسعدوا الرأى على الهوى

وقال عمرو بن العاص :

اذا المرء لم يترك طعاماً يحبه ولم يعص قلبا غاويا حيث يمما

قضى وطراً منه يسيراً ، وأصبحت اذا ذكرت أمثاله تملأ الفما

وقال ابن المقفع : اذا ابتدأك أمران ، لا تدرى أيهما أصوب ، فانظر أقربهما الى هواك فخالفه ، فان أكثر الصواب فى مخالفة الهوى .

وقال المعتصم : اذا نصر الهوى بطل الرأى .

وقال جعفر بن محمد : من كان الهوى ماله كله والعجز راحته ، عاقاه عن السلامة وأسلماه الى الهلكة .

وما قيل فى ذم الهوى والتحذير منه يوفى على الاحصاء، وانما نذكر من الشىء مايتفق، قال مُضَرِّس بن ربعى :

فلا تهلكن النفس لوماً وحسرة ... على الشىء سَدّاه لغيرك قادره
ولا تيأسنْ من صالح أن تناله ... وان كان نوشاً بين أيدٍ تبادره
وما فات فاتركه اذا عَزّ واصطبر ... على الدهر ان دارت عليك دوائره
فانك لاتعطى امرءاً حظ غيره ... ولاتعرف الشقّ الذى الغيث ماطره

قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : الرجال ثلاثة، والنساء ثلاث. فامرأة عفيفة مسلمة هينة لينة ودودٌ ولودٌ، تعين أهلها على الدهر ولاتعين على أهلها وقلما تجدها، وأخري وعاء للولد لاتزيد على ذلك شيئاً، وأخرى غُلٌّ قملٌ يجعلها الله فى عنق من يشاء. والرجال، رجل عاقل اذا أقبلت الأمور واشتبهت، تأمل فيها أمره ونزل عند رأيه، وآخر ينزل به الأمر فلا يعرفه فيأتى ذوى الرأى فينزل عند رأيهم، وآخر حائر بائر لايأتمر رشداً ولا يطيع مرشداً

يقال : لا تغتبطنّ بسلطان مع غير عدل، ولا بغنى من غير حِلّ، ولا ببلاغة من غير صدق منطق، ولا بجود فى غير اصابة موضع، ولا بأدب فى غير أصالة رأى، ولا بحسن عمل فى غير حسنة.

وقيل : الكامل من لم يبطره الغنى، ولم يستكن للفاقة، ولم تهدّه المصائب، ولم يأمن الدوائر، ولم ينس العاقبة، ولم يغتر بالشبيبه، واعلم أن عيبة العيوب وخزانة المخازى : الشباب، والبطش، والجمال، والغنى، والشَّبَق، والفخر، وشرب الخمر، وكظّة الطعام، وكثرة النوم، وانتشار الهم، واشتمال الجهل، وعادة السوء، فقابل كلاًّ من ذلك بما يقمعه ويقذعه.

قالوا : والعدل لا بد منه فى كل الأشياء حتى أن الجَوْرَ يحتاج الى العدل ، وضربوا لذلك مثلاً فى قطاع الطريق والمجتمعين على ظلم ، قالوا لو لم يتناصفوا فيما بينهم ، ولم يستعملوا الواجب فيما يقسمونه ، لانفسد أمرهم وانحل نظامهم .

قال ميمون بن مهران : ثلاث ، الكافر فيهن والمؤمن سواء ، الامانة تؤديها لمن ائتمنك عليها من مسلم وكافر ، وبر الوالدين ، قال الله تعالى : (وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا) ، والعهد كفى به لمن عاهدتَ من مسلم وكافر .

قال معاوية لابنه : اتخذ المعروف عند ذوى الأحساب تَشتَمِلْ به قلوبهم وتعظم به فى أعينهم ، وتكف عنك عاديتهم

قال الأقيشر :

اذا المرء وفّى الأربعين ولم يكن ... له دون ما يأتى حياء ولاستر
فدعه ولا تَنفِس عليه الذى أتى ... وإن مد أسباب الحياة له العمر

وقال حارثة بن بدر العدوانى :

اذا الهم أمسى وهو داء فأمضه ... ولست بمضيه وأنت معادله
ولا تنزلنْ أمر الشديدة بامرئٍ ... اذا رام أمراً عَوّقته عواذله
اذا ماقتلت الشيء علما فقُل به ... واياك والأمر الذى أنت جاهله
وقل للفؤاد ان نزا بك نزوة ... من الروع أفرخ كثر الرَّوع باطله

وقال آخر :

وأبثثت عمرواً بعض مافى جوانحى ... وجَرَّعتُه من مُرِّ ما أتجرَّعُ
ولابد من شكوى الى ذى حفيظة ... يواسيك أو يسليك أو يتوجع

قيل دخل الاحنف بن قيس على معاوية ، فذكر أهل العراق وحسن آرائهم ، وميسون بنت بحدل الكلبية أم يزيد تسمع كلامه ، فلما انصرف قالت : يا أمير المؤمنين أحب أن تأذن لقوم من أهل العراق عليك ، وتجعلني بحيث أسمع كلامهم . فقال لآذنه : انظر من بالباب ؟ فقال له : بنو تميم فقال : أدخلهم ، فدخلوا وفيهم الأحنف . فقال له معاويه : أقرب أبا بحر وضربت لميسون قبة بحيث تسمع كلامه . فقال له : يا أبا بحر ، كيف زيك لنفسك ؟ قال : أفرق الشعر ، وأقص الشارب ، وأقلم الاظفار ، وأنتف الابط ، وأحلق العانة ، وأديم السواك فانه مطهرة للفم مرضاة للرب وزيادة فى حسنات الصلوات ، وأغتسل فى كل جمعة فانه كفارة ما بين الجمعين . قال : فكيف زيك فى لبسك ؟ قال : أعرض النعلين وأقصر الكمين ، وأوسع الرداء ، وأشمر الازار ، وألزم الوقار . قال : قال فكيف زيك فى مشيتك ؟ قال : أوطىء قدمى على الارض فى ترسل ، وأنقلها على تمهل ، وأرعاهما بعينى ، وأقل التلفت حولى . قال : فكيف زيك اذا دخلت على من فوقك من الامراء ؟ قال : أطلق الحبا ، وأدع التكا ، وأقل الكلام ، وأرد السلام . قال : فكيف زيك اذا دخلت على نظرائك ؟ قال : أنازعهم الكلام فى تَسَمُّتٍ ، وأفاوضهم الحديث فى تثبت ، وأجيبهم اذا سألوا ، وأنصت لهم اذا قالوا ، ولا أجول فيما جالوا . قال : فكيف زيك اذا دخلت على أمرائك ؟ قال : أسلم من غير اشارة ، وأنتظر الاجابة ، فان قربنى تقربت ، وان أومأ الىَّ تباعدت . قال : فكيف زيك مع أهلك ؟ قال : أعفنى يا أمير المؤمنين . قال : عَزَمْتُ عليك لتفعَلَنَّ . قال : أحسن الخلق ، وأظهر البشر ، وأوسع النفقة فان المرأة خلقت من ضلع أعوج . قال :

فكيف زيك اذا أردت مباضعتها ؟ قال : من هذا استعفيتك . قال : نشدتك لما قلت . قال : أكلمها حتى تنشط ، وألثمها حتى تطرب ، فاذا كان الذى يُعلم طرحت على ظهرى وقاية تقيني اذا استقرت النطفة فى قرارها ، قلت اللهم اجعلها ميمونة مباركة ، ولا تجعلها شقية مشاركة ، وصوِّرْها أحسن صورة ، ثم أقوم الى الوضوء فأفيض الماء على يدى وترا ، ثم أصُبُّه على جسدي مُسبغا ، ثم أحمد الله على ما أعطانى من النعمة السّابغة والحلال الطيب. فقال معاوية : لقد أحسنت الجواب فسلنى حاجتك . قال: حاجتى يا أمير المؤمنين أن تتقى الله فى الرعية وتعدل بينهم بالسوية . ثم نهض . فلما ولّى قالت ميسون : لو لم يكن بالعراق الا هذا لكفاهم.

قال على كرم الله وجهه : كن فى الفتنة كابن اللّبون ، لا ظَهْرَ فيُركب، ولا ضَرْعَ فيُحلب .

ومن كلامه عليه السلام : الاحتمال قبر العيوب . من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه . قُرنت الهيبة بالخيبة ، والحياء بالحرمان ، والفرصة تمر مر السحاب، فانتهزوا فُرَصَ الخير. من أسرع الى الناس بما يكرهون، قالوا فيه ما لا يعلمون . عاتب أخاك بالاحسان اليه ، واردُدْ شَرَّه بالانعام عليه.

وقد قال جعفر بن محمد : لا تُتْبع أخاك بعد القطيعة وقيعةً فيه ، فتسد عليه طريق الرجوع اليك ، ولعل التجارب أن ترده اليك .

قال الشاعر ، هو محمد بن عبد الله الأزدي :

لا أدفع ابن العم يمشى على شفا وإن بلغتنى من أذاه الجنادع[1]

(١) البلايا وما يسوء من القول

ولكن أواسيه وأنسى ذنوبه ... لترجعه يوماً الىَّ الرواجع
وأفرشه مالى وأحفظ غيبه ... وأرعاه عينا بالذى هو سامع
وحسبك من جهل وسوء صنيعة ... معاداة ذى القربى وان قيل قاطعوا
فألبس ثراك الاهل تسلم صدورهم ... فلابد يوما ما تروع الروائعُ

وقال أبو هلال الاسدى ، ويروي لأبى النشناش التميمى :

ودع عنك مولى السوء والدهر إنه ... ستكفيكه أيامه ونوائبه
ويلقى عدواً من سواك يرده ... اليك فتلقاه وقد لان جانبه

قال على كرم الله وجهه :

من ظن بك خيراً فصدق ظنه . من بالغ فى الخصومة أثم ، ومن قَصَّرَ فيها ظُلم ، ولا يستطيع أن يتقى الله من خاصم . لاتظنَّنَّ بكلمةٍ خرجت من أحد سوءاً ، وأنت تجد لها فى الخير محتملا . الغيبة جهد العاجز .

سأل رجل ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يوصيه ويوجز ، قال: لاتغضب .

وقد قيل : إياك وجرأة الغضب فانها تصيرك الى ذل الاعتذار .

وقال ابن المقفع : اذا حاججت فلا تغضب ، فان الغضب يدفع عنك الحجة ويظهر عليك الخصم .

وقال الشاعر :

ولم أر عقلا تم الا بشيمة ... ولم أر علما تم الا على أدب
ولم أر فى الاشياء حين بلوتها ... عدواً للب المرء أقوى من الغضب

قيل : من كتم السلطان نصيحته ، والاطباء مرضه ، والاخوان بَثه ، فقد خان نفسه .

وقال محمد بن على بن موسى بن جعفر للمتوكل ، فى كلام دار بينهما : لا تطلب الصفا ممن كدَّرتَ عليه ، ولا النصح ممن صرفت سوء ظنك اليه ، فانما قلب غيرك لك كقلبك له .

وهذا الكلام مأخوذ من قول النبى صلى الله عليه وسلم ، الذي هو منبع كل حكمة : الذنب لا يُنسى ، والبِرُّ لا يبلى ، وكن كيف شئت ، فكما تدين تُدان .

قال عبد الله بن الحسن لابنه : يابنى ، إياك ومعاداة الرجال ، فانه لا يعدمك مكر حليم ، أو مفاجأة لئيم .

قال عليه السلام : من الحُرق المعاجلة قبل الامكان ، والأناة بعد الفرصة .

وقال حكيم : من ظفر بالأمر الجسيم فأضاعه فاته . من التمس فرصة فأمكنته فأخر العمل بها ، لم تعد اليه .

وقال : كفى بنفسك أدباً ما كرهته لغيرك .

وقال : خذ من الدنيا ما أتاك ، وتول عما تولى عنك ، فان أنت لم تفعل فأجمل فى الطلب . الدهر يومان ، فيوم لك ويوم عليك ، فاذا كان لك فلا تبطر ، واذا كان عليك فاصبر .

وقال : مقاربة الناس فى أخلاقهم أمن من غوائلهم .

وقال : لا ينبغى للعبد أن يثق بخصلتين ، العافية والغنى . بينا تراه معافى اذ سقم ، وبينا تراه غنياً اذ افتقر .

وقال : من كرمت عليه نفسه ، هانت عليه شهوته . من عظم صغار المصائب ، ابتلاه الله بكبارها . زهدك فى راغب فيك نقصان حظ ، ورغبتك فى زاهد فيك ذل نفس .

وقال : ما مزح امرؤ مزحة الا مَجَّ من عقله مَجَّةً[1].

وقال الحسن بن على : المزاح يأكل الهيبة .

وقال آخر : لاتمازح الشريف فيحقد عليك، ولا السفيه فيجترىء عليك

وقال أفلاطن : لاتفرح بسقطة غيرك، فانك لاتدرى تصرف الأيام بك.

قيل : أول كلام بارع سمع من سليمان بن عبد الملك ، قوله : الكلام فيما يعنيك خير من الكلام فيما يضرك .

قال كسرى : لاتنزل ببلد ليس فيه خمسة أشياء : سلطان قاهر ،وقاض عادل ، وسوق قائمة ، وطبيب عالم ، ونهر جار .

قال عمر بن الخطاب : لايكن حبك ، كلفاً ، ولا بغضك تلفاً .

ومن الخبر المروى : أحبب حبيبك هوناً ما ، فعسى أن يكون بغيضك يوماً ما . وابغض بغيضك هونا ما ،فعسى أن يكون حبيبك يوما ما.

وشبيه به قول الشاعر وهو النَّمِر بن تَوْلَب :

وأحبب حبيبك حباً رويداً اذا أنت حاولت أن تحكما
وابغض بغيضك بغضاً رويداً اذا أنت حاولت أن تَنصِرما

قيل فى حكمة الهند مكتوب : اليقين بالقدر لا يمنع العاقل توقى الهلكة . وليس لأحد أن ينظر فى القدر المغيّب ، وانما عليه أن يأخذ بالحزم ، ونحن نجمع تصديقاً بالقدر وأخذاً بالحزم .

وسئل محمد بن على بن موسى عن الحزم ، فقال : هو أن تنظر فرصتك وتعاجل ما أمكنك.

---

(١) مج الماء من فيه رماه فكأنه يرمى بعقله ضياعا

قال جعفر بن محمد : لا تحدث من تخاف أن يُكذّبك ، ولا تسأل من تخاف أن يمنعك ، ولا تأمن من تخاف أن يَغْدر بك

وقال على بن موسى : اصحب السلطان بالحذر ، والصديق بالتواضع ، والعدو بالتحرز ، والعامة بالبشر .

وقال محمد ابنه : من هجر المداراة قارنه المكروه ، ومن لم يعرف الموارد أعيته المصادر

وقال : اتَّئِدْ تُصِبْ أو تَكَدْ .

وقال أضعف الاعداء كيداً من أظهر عداوته . العاقل لا تبطره منزلة أصابها ، كالجبل الذى لا تزلزله شدة الرياح .

قالت هند بنت عتبة : المرأة غُلٌّ لا بد منه للعُنُق فانظر من تضعه فى عنقك .

ومن كلام الحكماء : من ترك مالا طاقة له به ، كان أستر لمكتوم أمره ، وأبقى للآمال فيه .

وقيل لأفلاطن : كيف يغم الانسان عدوه ؟ قال : يَغُمُّهُ اذا أصلح نفسه .

ومن كلام على عليه السلام : أيها الناس ! ليراكم الله من النعمة وَجِلين ، كما يراكم من النقمة فَرِقين . إنه من وُسِّعَ عليه فى ذات يده فلم ير ذلك استدراجا ، فقد أمِنَ مخوفاً ، ومن ضُيِّقَ عليه فى ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضَيَّعَ مأمولاً . ذَلِّلْ نفسك بالصبر على جار السوء ، وجليس السوء ، وخليط السوء ، فان ذلك مما لا يكاد يُخطئك . اعلم أن بعض العطية لؤم ، وبعض السلاطة عِىّ ، وبعض العلم جهل ، فان استطعت ألا يكون اعطاؤك خَوَراً ، ولا بيانك هَذَراً ، ولا علمك وبالا ، فافعل .

إن استطعت ألاّ تخبر بخبر إلا وأنت مُصَدِّق ، ولا يكون تصديقك إلا ببرهان ، فافعل . ولا تقل كما تقول السفهاء : أخبر بكل ماسمعت ، فان الكذب أكثر ماأنت سامع ، وإن السفهاء أكثر من هو قائل. عليك بالحذر فى عملك ، والجرأة فى قلبك . إنّ من عدوك من تعمل فى هلاكه ، ومنهم من تعمل فى مصالحته ، فاعرفهم على منازلهم . تعلم حسن الاستماع ، وإمهال المتكلم حتى ينقضى حديثه ، وقلة التلفت الى الجواب ، والاقبال بالوجه والنظر الى المتكلم ، والوعى لمايقول . ومن الأخلاق السيئة على كل حال مغالبة الرجل على كلامه ، والاعتراض فيه ، والقطع للحديث .

وصى محمد بن على بن الحسين ، رضى الله عنهم ، بعض أصحابه ، وهو يريد سفراً ، فقال : لا تَسِيرنّ سيراً وأنت حاقِنٌ (١) ، ولا تنزلن عن دابتك ليلا لقضاء حاجة إلا ورجلك فى خُفٍّ ، ولا تبولن فى نفق ، ولا تذوقنّ بقلة ولا تَشْتَمّها حتى تعلم ماهى ، ولا تشرب من سِقاءٍ حتى تعرف مافيه ، واحذر من تعرف ، ولا تصحب من لا تعرف . تعلموا العلم فان تَعَلُّمَه جُنَّة ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقة ، وبذله لأهله قُربة . والعلم منار الجنة ، وأنس فى الوحشة ، وصاحب فى الغربة ، ورفيق فى الخلوة ، ودليل على السرّاء ، وعون على الضراء ، وزين عند الأخلاء ، وسلاح على الأعداء ، ويرفع الله به قوماً ليجعلهم فى الخير أئمة يُقتدى بفعالهم وتُقتَصُّ آثارهم ، ويصلى عليهم كل رطب ويابس وحيتان البحر وهوامه وسباع البر وأنعامه .

---

(١) الحاقن الذى استعمل الحقنة . والمعنى هنا هو النهى عن السفر فى حالة المرض

وقال معاوية لعبد الرحمن بن الحكم: بلغنى انك قد لهجت بقول الشعر. قال قد فعلت. قال: فاياك والتشبيب بالنساء، فتعرُّ الشريفة، وترمى العفيفة، وتُقِرُّ على نفسك بالفضيحة. واياك والهجا، فانك تحنق عليك كريما، وتستثير سفيها. واياك والمديح فانه طعمة الوَقاح [1]، وتَفَحُّشُ السؤال ولكن افخر بمفاخر قومك، وقل من الشعر ما تزين به نفسك، وتؤدب به غيرك.

قال على عليه السلام: عاتب أخاك بالاحسان اليه، واردُدْ شَرَّه بالانعام عليه.

لما احتضر قيس بن عاصم، قال لبنيه: يا بَنِيَّ: احفظوا عنى فانه لا أحد أنصح لكم منى، اذا أنا مُتُّ فسوِّدوا كباركم ولا تُسوِّدوا صغاركم فيحقر الناس كباركم، وتهونوا عليهم. وعليكم بحفظ المال، فانه مُنبهة [2] للكريم، ويستغنى به عن اللئيم. وإياك والمسألة، فانها آخر كسب الرجل.

قال الزبير بن عبد المطلب:

إذا كنت فى حاجة مُرسلاً ... فارسل حكيماً ولا تُوصِه
وإن باب أمرٍ عليك التوي ... فشاور حكيماً ولا تعصه
ولا تنطق الدهرَ فى مجلسٍ ... حديثا اذا أنت لم تُحصه
ونُصَّ الحديث إلى أهله ... فان الوثيقة فى نصه
وإن ناصح عنك يوما نأى ... فلا تَنْأَ عنه ولا تُقصِهِ

---

(١) وقح الحافر: صلب، وقح الرجل: قل حياؤه
(٢) هذا منبهة لكذا مشعر به ومعل له.

وكم من فتى عازب عقله ... وقد تعجب العين من شخصه
وآخر تحسبه جاهلا ... ويأتيك بالأمر من فصّه

وقال الكميت بن زيد :

وان لم يكن الا الأسنة مركب ... فلا رأي للمحمول الا ركوبها

وقال أعرابي :

اذا ضيعت أول كل أمر ... أبت أعجازه الا التواء
وان سوّمت أمرك كل وغد ... ضعيف كان أمرك كما سواء
وان داويت أمراً بالتناسي ... وبالليان أخطأت الدواء

وقال آخر :

إياك والأمر الذى ان توسعت ... موارده ضاقت عليك المصادر
فما حسن أن يعذر المرء نفسه ... وليس له من سائر الناس عاذر

وللرضى : كم قابس عاد بغير نار ... لا بد للمسرع من عثار

وقال أيضاً :

من أسرع الرّمح الى ظهره ... لا بد أن يقلب ظهر المجن

وقال :

ما كنت أجرع نطفة معسولة ... طوعَ المُنى واناؤها من حنظل

وقال محمد بن أبي شحاذ القِنّبي :

إذا أنت أعطيت الغنى ثم لم تجدْ ... بفضل الغنى الفيت مالك حامد
اذا أنت لم تعرُك بجنبك بعض ما ... يريب من الأدنى رماك الأباعد
إذا الحلم لم يغلب لك الجهل لم تزل ... عليك بروق جمة ورواعد

اذا العزم لم يفرُج لك الشّكّ لم تزل جنيباً كما استتلى الجنيبة (١) قائد

وقل غناءً عنك مالٌ جمعته اذا كان ميراثاً ووارثك لاحد

قيل: العزلة تُوفر العِرض، وتستر الفاقة، وترفع ثقل المكافاة. وينبغى للأديب أن يأخذ من جميع الآداب أجودها، كما أن النحل يأخذ من كل زهر أطيبُه.

(١) الجنيبة الفرس تقاد ولا تركب

الفصل الخامس

(أخبار فى السياسة والآداب)

لما وضع كسرى أنو شروان الخراجَ على الأرض ، وأحكم أمره ، وقرر الأتاوات [١] على مجاورى أطراف مملكته ، وأتت عليه ثمانى وعشرون سنة لملكه ، جَدّدَ النظر فى ولايته ، والعدل على رعيته وانصافهم ، واحصاء مظالمهم . وكان أنو شروان ملك على ضعف ممن كان قبله ، ولين انتشر به حبل الفرس وغلب عليه مجاورهم ، قال أنو شروان : فأمرت مؤبّذَ كل ثغر ومدينة وبلد جندٍ بانهاء حالهم إلى ، وأمرت بعرض الجند من كان منهم بالباب بمشهد منى ، ومن غاب فى الثغور والأطراف بمشهد القائد وبادوستان والقاضى وأمين من قبلنا . وأمرت بجمع أهل كور الخراج فى كل ناحية من مملكتى الى مصرها مع القائد وقاضى البلد والكاتب والأمين ، وسَرّحتُ من قبلى من عرفت صحته وأمانته ونسكه الى كل مصر ومدينة ، ليجمعوا بين العمال وبين أهل أرضهم وبين وضيعهم وشريفهم ، وأن يُرفعَ الأمر كله على حقه وصدقه ، فما نفذ لهم فيه أمر ، أوضح فيه القضاء ورضوا به أهله فرغوا منه هنالك ، وما أشكل عليهم رفعوه الىّ . وبلغ من اهتمامى بتفقد ذلك ما لولا الذى أدارى من الأعداء والثغور ، لباشرت ذلك بنفسى ، وتصفحت الخراج والرعية قريةً قريةً ، وكلمت رجلاً رجلاً ،

---

(١) الأتاوات مفردها : أتاوة وهى الجزية

غير أنى خفت أن يضيع بذلك ماهو أكثر منه ، والأمر الذى لا يُغنى فيه غنائى أحد ، مع مافى الشخوص الى قرية قرية من المؤنة على الرعية وجندنا . وكرهنا إشخاصهم الينا تخوفاً أن نشغل أهل الخراج عن عمارة أرضهم ، أو يكون فيهم من يدخل عليه فى ذلك مؤنةً . وبلغنا أن أولئك الأمناء لم يبالغوا على قدر رأينا فى الرعية ، فأمرت بالكتب الى قاضى كل كورة أن يجمع أهل كورته بغير علم عاملهم وأولى أمرهم ، ويسألهم عن مظالمهم ، وما استخرج منهم ، ويفحص عن ذلك بمجهود رأيه ، ويبالغ فيه ، ويكتب حال رجلٍ رجلٍ منهم ، ويختم عليه بخاتمه وخاتم الرضا من أهل تلك الكورة ، ويبعث به الىَّ . ونظرت فى الكتب والمظالم ، فأية مظلمة كانت من العمال أو من وكلائنا ، أو من وكلاء أولادنا ونسائنا وأهل بيتنا حططناها عنهم بغير بينة ، لضعف أهل الخراج عنهم ، وظلم أهل القوة من السلطان لهم . ولم يجعل الله لذوى قرابتنا وخدمنا وحاشيتنا منزلةً عندنا دون الحق والعدل . وأية مظلمة كانت لبعض الرعية من بعض ، ووضحت لنا ، أمرتُ بانصافهم قبل البراح . وما أشكل أو وجب الفحص عنه بشهود البلد وقاضيه ، سرّحت أميناً من الكتاب ، وأميناً من فقهاء ديننا ، وأميناً ممن وثقت به من حاشيتنا ، حتى أحكمت ذلك إحكاماً وثيقاً .

وقيل : إن انوشروان ، لما تقلد المملكة ، عطف على الصبّوح والغَبوق [1] ، فكتب اليه وزيره يقول له : ان فى ادمان الملك الشرب ضرراً على الرعية . والوجه تخفيف ذلك ، والنظر فى أمور المملكة . فوقع

---

(١) الصبوح شرب الغداة ، والغبوق شرب العشي

على ظهر الرقعة بما ترجمته : « اذا كانت سُبُلنا آمنة ، وسيرتنا عادلة ، والدنيا باستقامتها عامرة ، وعمالنا بالحق عاملة ، فَلِمَ نُمنعُ فرحةً عاجلة ؟ اعترُضَ عليه فى ذلك فقيل أخطأ من وجوه : أحدها أن الإدمان إفراط ، والافراط مذموم ، والآخر أنه جهل أن أمن السُّبُل وعدلَ السيرة ، وعمارة الدنيا ، والعمل بالحق ، متى لم يُوكَّل به الطَّرْف الساهر ، ولم يُحَطْ بالعناية التامة ولم يحفظ ، بالاهتمام الجالب لدوام النظر ، دَبّ اليها النقص ، والنقص مُزيلٌ للاصل ، مزعزعٌ للدعامة ، والآخر أن الزمان أعز من أن يُبذل كله لِلَهْوٍ و تمتُّع فان فى تكميل النفس باكتساب الرشد لها ، وابعاد الغيِّ عنها ما يستوعبُ أضعاف العمر . فكيف اذا كان العمر قصيراً ! أو كان ما يدعو اليه الهوى كثيراً ! والآخر أنه ذهب عليه أن العامة والخاصة اذا وقفت على اشتهار الملك باللذات ، وانهماكه فى طلب الشهوات ، ازدرته واستهانت به ، وحدثت عنه بالاخلاق المذمومة ، واستهانتهم للناظر فى أمورهم والقيِّم بشأنهم متى تكررت على اللسان انتشرت فى المحافل ، والتفت بها بعضهم الى بعض . وهذه مكسرة للهيبة ، وقلة الهيبة رافعة للحشمة ، وارتفاع الحشمة باعث على الوثبة والوثبة غير مأمونة من الهلكة . وما خلا الملك من طامع راصد قط !

وليس ينبغى للملك الحازم أن يظن أنه لا ضِدّ له ولا منازع ، فقد ينجم الضد والمنازع من حيث لا يحتسب ، وما اكثرَ خجلَ الواثق ! وعلى الضِدِّ متى كان السائس ذا تحفظ ، وبحث ، وتتبع ، وحزم ، وإكباب على لم الشعث وتقويم الأود وسدِّ الخلل وتعرف المجهول وتحقق المعلوم ودفع المنكر وبث المعروف ، احترست منه العامة والخاصة ، واستشعرت

الهيبة ، والتزمت بينها النَّصفة ، وكفت كثيراً من معاناتها ومراعاتها. فان كان للدولة راصد للعثرة ، يئس من نفوذ الحيلة فيها ، لأن اللص اذا رأى مكاناً حصيناً ، وعهد حُرّاساً ، لم يحدث نفسه بالتعرض له . وانما يقصد قصراً فيه ثُلمة ، وباباً اليه طريق . والأعراض بالأسباب ، واذا ضعف السبب ضعف العرض ، واذا انقطع العرض انقطع السبب .

لما حارب الاسكندر دارا بن دارا ، تقرب اليه قائدان من قواد دارا بقتله ، على شرطٍ شرطه لهما وبذل . فلما قتلاه وفّى لهما بالشرط والبذل ، ثم قتلهما وقال : لم تكونا شرطتما أنفسكما ، وليس لقتلة الملوك أن يُستَبقوا إلا بذمة لا تخفر

ولما ملك الاسكندر بلاد الفرس ، هابَ رجالهم ، لما رأى من كمالهم وعقولهم ، فهَمّ بقتل أكابرهم وكاتب أرسطاطاليس يستشيره فيهم ، فنهاه عن قتلهم وقال : هذا من الفساد فى الأرض ، ولو قتلتهم لأنبتت أرض بابل أمثالهم . وأشار عليه بأن يفرق المملكة بين أولاد الملوك لتتفرق كلمتهم ، ولا يدين بعضهم لبعض ، ففعل ذلك حتى أمكنه تجاوز بلاد فارس الى أرض الهند والصين . وكانت نتيجة هذا الرأى ، أن مُلك الفرس تقسم بعد موت الاسكندر ، فصار فى ملوك الطوائف مدة خمس مائة واحدى عشرة سنة ، الى أن قام بالملك أزدشير بن بابك ، فجمع المملكة بعد معاناة شديدة ومشقة عظيمة . وقال أزدشير : نحن نُضرب بسيف أرسطاطاليس مذ هذه المدة البعيدة .

وقيل جلس الاسكندر يوما مجلسا عاما ، فلم يُسأل حاجة ، فقال لجلسائه : والله ما أعُدُّ هذا اليوم من أيام عمرى فى ملكى . قيل : ولِم أيها

الملك ، دامت لك السعادة ؟ قال : لأن الملك لا يوجد التلذذ به الا بالجود للسائل ، وإلا باغاثة الملهوف ، وإلا بمكافأة المحسن وإلا بانالة الطالب واسعاف الراغب .

كتب ملك الى ملك : بما انتظمت مملكتك ، واستقامت رعيتك ؟ فقال فى الجواب : بثمان خصال ، لم أهزل فى أمرٍ ولا نهى ، ولا أخلفت موعداً ولا وعيداً قط ، وعاقبت للجرم لا للحقد ، وولّيتُ للغَناء لا للهوى ، واستملت قلوب الرعية من غير كره ، وسهلت الأذن من غير ضعف ، وعممت بالقوت ، وحسمت الفضول .

طلب أهل يونان رجلا يصلح للملك بعد مَلِكٍ لهم ، فذكروا رجلا ، فقال فيلسوف لهم : هذا الرجل لا يصلح للملك . قالوا : ولِم ؟ قال : لأنه كثير الخصومة ، وليس يخلو فى خصومته أن يكون ظالما أو مظلوما ، فان كان ظالما لم يصلح للملك وان كان مظلوما لم يصلح لضعفه . قالوا : صدقت ، فأنت أولى بالملك منه ، فملّكوه .

وكان المنصور يقول : الخلفاء أربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ، على ما نال عثمان ، وما نيل منه أعظم . ولنعم الرجل كان عمر بن عبد العزيز ! والملوك أربعة ، معاوية وكفاه زياده ، وعبد الملك وكفاه حجّاجُه ، وهشام وكفاه مواليه ، وأنا ولا كافى لِى . ولنعم رجل الحرب كان حمار الجزيرة من رجل لم يكن عليه طابع الخلافة ! وكان معاوية للحلم والأناة ، وعبد الملك للأقدام والأحجام ، وهشام لوضع الأمور مواضعها ، ولقد شاركت عبد الملك فى قول كُثيِّر :

يَصدّ ويُغضى وهو ليثُ عرينةٍ وان أمكنته فرصة لا يُقيلها

قيل لعمر بن الخطاب رضى الله : ما لك لا تنام بالليل ؟ قال: لئن نمت بالليل لأضيعنّ نفسى ، ولئن نمت بالنهار لأضيعن الرعية .

وكان عمر ، رضوان الله عليه ، يقول : ان هذا الامر لا يصلح له الا اللين فى غير ضعف ، والقوة فى غير عنف .

وكلم الناسُ عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر بن الخطاب، رضى الله عنه ، فى أن يلين لهم ، فانه قد أخافهم ، حتى أخاف الابكارُ فى خدورهن فقال عمر رضى الله عنه : انى لا أجد لهم الا ذلك ، انهم لو يعلمون ما لهم عندى لأخذوا ثوبى عن عاتقى .

وقال عمر رضى الله عنه : دِلّونى على رجل أستعمله . قالوا : كيف تريده ؟ قال : اذا كان فى القوم وليس أميرهم ، كان كأنه أميرهم ، واذا كان أميرهم ، كان كأنه رجل منهم . قالوا : ما نعلمه الا الربيع بن زياد الحارثي قال : صدقتم هو لها .

روي أن عليا عليه السلام وجد درعاً له عند يهودى التقطها ، فعرفها فقال كرم الله وجهه : دِرعى سقطت عن جمل لى أورق . فقال اليهودى : دِرعى وفى يدى . ثم قال اليهودى : بينى وبينك قاضى المسلمين . فاتيا شريحا فلما رأى شريح عليا قد أقبل ، انحرف عن موضعه وجلس على عليه السلام فيه ، ثم قال : لو كان خصمى من المسلمين لساويته فى المجلس ، لكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا تساووهم فى المجلس وألجئوهم الى أضيق الطرق ، فان سَبُّوكم فاضربوهم ، وإن ضربوكم فاقتلوهم . ثم قال شريح : ماتشاء يا أمير المؤمنين ؟ قال : درعى سقطت عن جمل لى أورقَ ، والتقطها هذا اليهودي : فقال شريح : ماتقول ياهودي؟قال :درعي وفى

يدى. فقال شريح: صدقتَ والله يا أمير المؤمنين انها لدرعك ولكن لا بد من شاهدين. فدعا قنبراً مولاه، والحسنَ ابنه، فشهدا انه لدرعه. فقال شريح: أما شهادة مولاك فقد أجزناها، واما شهادة ابنك لك فلا نجيزها. فقال على كرم الله وجهه: ثكلتك أمك، أما سمعت عمر بن الخطاب يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»؟ قال اللهم نعم! قال: أفلا تجيز شهادة سيد شباب أهل الجنة؟ والله لأوجهنك الى (بانقيا)، تقضى بين أهلها أربعين ليلة. ثم قال لليهودى: خذ الدّرع فقال اليهودى: أمير المؤمنين جاء معى الى قاضى المسلمين، فقضى عليه ورضى. صدقتَ والله يا امير المؤمنين إنها لدرعك، سقط عن جمل لك التقطتها، أشهد ان لا إله إلا الله وان محمداً رسول الله. فوهبها له على وأجازه بتسع مائة، وقتل معه يوم صِفّين. وهذا الخبر بجمع معناه سياسة الدين والدنيا.

قال أبو حاتم: حضرت بعض ولاة البصرة، وكان جباراً ـ ولم يُسَمِّه فسمعت رجلاً فى مجلسه يقول: الأتباع يؤنسهم البشر، ويوحشهم الازورار[1] ويلمهم لين الجانب ويفرقهم عنف المعاشرة. وازدحام الآمال إليك نعمة من الله عليك، فقابل النعمة بحسن المعاشرة تستدم واردها، وتستدع نافرها. قال: فما زلت أعرف موقع هذا الكلام من ذلك الوالى حتى افترقنا.

نظر رجل من قريش الى صاحب له قد نام فى غداة من غدوات الصيف طيبة النسيم، فركضه برجله وقال: مالك تنام عن الدنيا فى أطيب

---

(١) الجفاء.

أوقاتها ؛ نم عنها فى أخبث حالاتها . نم نصف النهار لبعدك من الليلة الماضية والجائية ، ولأنها راحة لما قبلها من التعب ، و جَمَامٌ [١] لما بعدها من العمل . نمت فى وقت الحوائج ، وتنتبه فى وقت رجوع الناس ، وقد جاء : قِيلوا فان الشياطين لاتقيل .

كان رجل من العرب فى الجاهلية ، اذا رأي رجلا يظلم ويعتدى يقول : فلان لايموت سَوِياً ، فيرون ذلك حتى مات رجل ممن قال فيه ذلك سوياً . فقيل له : مات فلات سويا . فلم يقبل حتى تتابعت الأخبار ، فقال : ان كنتم صادقين ، ان لكم داراً سوى هذه تجازَون فيها .

قال زياد : ماغلبنى معاوية بشيء من أمر السياسة الا فى شيء واحد . قيل : ماهو ؟ قال : وليت رجلا دستميسان فكسر على الخراج وهرب ، فلحق بمعاوية فكتبت اليه أسأله أن يبعث به الى . فكتب الى : أما بعد ، فانه ليس ينبغى لمثلى ومثلك أن يسوس الناس بسياسة واحدة ، أن نشتد عليهم جميعاً فنخرجهم ، أو نلين لهم فنمزجهم . ولكن تلى أنت الفظاظة والغلظة ، وألى أنا الرأفة والرحمة ، فاذا هرب هارب من باب وجد باباً يدخل فيه . ولقد نظر معاوية الى نفسه واختار أحب السياستين وأحبهما الى الناس .

قدم قادم على معاوية فقال له : هل من مغرّبة بخبر ؟ قال : نعم ، نزلت بماء من مياه العرب ، فبينا أنا عليه أورد اعرابى إبله ، فلما شربت

---

(١) الجمام : الراحة يقال « وجد جمامه راحته » .

ضرب على جُنوبها وقال : عليك زياداً . فقلت له : ما أردتَ بهذا ؟ فقال: هى سُدىً ماقام لها راع منذ وَلِىَ زياد . فسُرّ بذلك معاوية وكتب به الى زياد

وقال معاوية : لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطي ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى . ولو أن بينى وبين الناس شعرةً ما انقطعت كنت اذا مَدّوها خليتها ، واذا خلوّها مددتها .

لما مات زياد وفد ابنه عبيد الله على معاوية فقال له : من استخلف أخى على عمله بالكوفة ؟ قال : عبد الله بن خالد بن أسيد . قال : فعلى البصرة ؟ قال : سَمُرَة بن جُندَب . قال له معاوية : لو استعملك أبوك استعملتك .

فقال عبيد الله : أنشدك الله أن يقولها أحد لى بعدك ، لوولاّك أبوك وعمك وليتك . فولاه خراسان وأوصاه . فقال : اتق الله ، ولا تؤثر على تقواه شيئاً ، وقِ عِرضَك من أن تدنسه ، واذا أعطيت عهداً ففِ به ، ولا تبيعنّ كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، ولا يخرجنّ منك أمر حتى تبرمه ، فاذا خرج فلا يردن عليك ، واذا لقيت عدوك فغلبك على ظهر الارض فلا يغلبنك على بطنها ، وان احتاج أصحابك الى أن تواسيهم بنفسك فواسِهِمْ ، ولا تُطمِعَنّ أحداً فى غير حقه ، ولا تؤيِسَنّ أحداً من حق هو له .

ونظر الى يزيد وهو يضرب غلاما له فقال : لا تُفسد أدبك بتأديبه .

قال المنصور لابنه المهدى : يا بُنَيّ أشبع العباس بن محمد ، فانك ان لم تشبعه أكلك . وكان العباس بن محمد من رجال بنى هاشم وذوى آرائهم ، وهو الذى قال للرشيد : يا أمير المؤمنين انما هو درهمك وسيفك ، فازرع بهذا من شكرك ، واحصد بهذا من كفرك .

وقال لأبنه المهدى حين عقد له : يا بُنى استديم النعمة بالشكر ، والمقدرة بالعفو ، والطاعة بالتألف ، والنصر بالتواضع ، والرحمة من الله سبحانه وتعالى بالرحمة للناس .

وقال المنصور : لا تُنفّروا أطراف النعم بقلة الشكر ، فتحل بكم النقمة ولا تُسرّوا غش الأئمة ، فان أحداً لا يُسرّ منكراً الا ظهر فى فلتات لسانه وصفحات وجهه وطوالع نظره . وإنا لا نجهل حقوقكم ما عرفتم حقنا ، ولا ننسى الاحسان اليكم ما ذكرتم فضلنا . ومن نازعنا عُروة هذا القميص أوطأنا أم رأسه خبىّ هذا الغمد .

أهوى هشام بن عُروة الى يد المنصور ليقبلها فقال له : يا أبا المنذر إنّا نُكرمك عنها ونُكرمها عن غيرك .

وكان المأمون أفضل خلفاء بنى العباسى علماً وحلماً وبياناً وسياسة وجوداً . قال سهل بن هارون ما رأيت أنطق من المأمون . وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من أصناف العلم مالا ينبغى للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يُرغب عن بعض العلم ، كما يُرغب عن بعض الحلال . فقال المأمون قد يُسمى بعض الناس الشىء علماً وليس بعلم ، فان كنت هذا أردت ، فوجهه الذى ذكرناه ، ولو قلت إن العلم لا يُدرك غوره ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تُستقصى أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فاذا كان الأمر كذلك ، فابدؤا بالأهم فالأهم ، وابدؤا بالفرض قبل النّفل ، كان ذلك عدلا وقولا قصداً . وقد قال بعض العلماء : اقصد من أصناف العلم الى ما هو اشهى إلى نفسك ، واخفّ على قلبك ؛ فان نفاذك على حسب شهوتك له . وسهولته عليك . وقال ايضا بعض الحكماء : لست اطلب العلم طمعاً

فى بلوغ غايته ، والوقوف على نهايته ، ولكن التماس ما لا يسع جهله .

ولما دخل عليه المرتد الخراسانى ، وقد كان حمله معه من خراسان حتى وافى به العراق ، قال له المأمون : لأن استحييك بحق أحب الى من أن أقتلك بحق ، ولأن أقتلك بالبراءة أحب الى من أن أقتلك بالتهمة . وقد كنت مسلما بعد أن كنت نصرانيا ، وكنت فيها أنجح وأيامك فيها أطول ، فاستوحشت بما كنت به انسانا ، ثم لم تلبث أن رجعت عنا نافرا ، فخبّرنا عن الشىء الذى أوحشك من الشىء الذى صار أنساً لك ، من الفك القديم وأنسك الأول . فان وجدت عندنا دواء دائك تعالجت به ، والمريض من الاطباء يحتاج الى المشاورة ، وان أخطأك الشفاء . ونبا عن دائك الدواء . كنتَ قد اعذرتَ ولم ترجع على نفسك باللائمة . فان قتلناك قتلناك بحكم الشريعة ، وترجع أنت فى نفسك الى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنك لم تقصر فى اجتهاد ، ولم تفرط فى الدخول فى باب الحزم .

قال المرتد : أوحشنى كثرة مارأيت من الاختلاف فيكم . قال المأمون : لنا اختلافان ، أحدهما كالاختلاف فى الآذان وتكبير الجنائز والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات واختلاف وجوه الفتيا وما أشبه ذلك ، وليس هذا باختلاف ، وانما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذّن مثنى وأقام مثنى لم يؤثم من أذّن مثنى وأقام فرادى ، لايتعايرون ولايتعايبون ، أنت ترى ذلك عياناً وتشهد عليه بياناً ، والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الحديث عن نبينا صلى الله عليه وسلم ، مع اجماعنا على أصل التنزيل ، واتفاقنا على عين الخبر . فان كان الذى أوحشك هذا حتى أنكرت هذا الكتاب ،

فقد ينبغى أن يكون اللفظ بجميع التوراة والانجيل متفقا على تأويله كما يكون متفقا على تنزيله ، ولا يكون بين جميع اليهود والنصارى اختلاف فى شىء من التأويلات ، وينبغى لك ألا ترجع الا الى لغة لا إختلاف فى تأويل ألفاظها ، ولو شاء الله أن ينزل كتبه ويجعل كلام أنبيائه وورثة رسله لايحتاج الى تفسير لفعل . ولكنا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دُفع الينا على الكفاية ، ولو كان الأمر كذلك لسقطت البلوى والمحنة ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل . وليس على هذا بنى الله الدنيا . قال : أشهد أن الله واحد لاندّ له ولا ولد ، وأن المسيح عبده ، وأن محمداً صادق ، وأنك أمير المؤمنين حقاً . فالتفت المأمون الى أصحابه وقال : فَرُوا عليه عِرضه ولا تَبرّوه فى يومه هذا ، ريثما يعتق اسلامه ، كيلا يقول عدوه انه أسلم رغبةً ، ولا تنسوا بعد نصيبَكم من بِرّه وتأنيسه ونصرته والعائدة عليه.

وكان المأمون يقول : اذا وضحت الحجة ثَقُل على استماع المنازعة فيها.

نزل رجل من اهل العسكر ، فعدا بين يدى المأمون وشكا اليه مظلمته ، فاشار بيده حسبُك . فقال له بعض من كان يقرب من المأمون : يقول لك امير المؤمنين اركب . قال له المأمون لايقال لمثل هذا إركب ، انما يقال له انصرف .

ولو لا ان يخرج الكتاب عن حده لذكرت من محاسن المأمون فى اخباره وافعاله ما يغنى عن اخبار غيره ، ولكنى اورد من اخبار كل ذى ادب وسياسة طرفا

لما ولى يزيد بن معاوية سَلْم بن زياد خراسان قال له : إن اباك كفى أخاه عظيما . وقد استكفيتك صغيراً ، فلا تتكان على عذر منى ، فاني قد

اتكلت على كفاية منك . وإياك منى قبل أن أقول إياى منك، فان الظن اذا أخلف فيك أخلف منك . وأنت فى أدنى حظك فاطلب أقصاه وقد أتعبك أبوك فلا تريحنّ نفسك . وكن لنفسك تكن لك واذكر فى يومك حديث غدك .

بلغ عبد الملك بن مروان أن عاملا له قبل هدية فسأله عن ذلك فقال : بلادك عامرة ، وخراجك وافر ، ورعيتك راضية . قال أخبرنى عما سألتك قال: قد قبلت ، قال : لئن كنت قبلتها ولا ترى لصاحبها مكافأة إنك للئيم ، وان كنت قبلتها لتستكفى رجلا عاجزاً إنك لخائن ، ولئن كنت قبلتها وأنت مضمر تعويض صاحبها لقد بسطت ألسن أهل عملك بالقدح فيك وذلك جهل . وما فيمن أتى أمراً لم يخلُ فيه من لؤم وخيانة وجهل مصطنع ، وعزله .

نسب النميرى بزينب بنت يوسف أخت الحجاج ، وله فيها أشعار وأخبار، فكتب اليه عبد الملك :قد بلغنى ماقال هذا الخبيث فاياك أن تقرّبه فتطمعه ، أو تعاقبه فتصدقه ،ولكن ألهُ عنه وتناسَ أمره. وكان أبو دهبل ألح على عاتكة بنت معاوية بالشعر حتى سارت الرواة بما قال فيها ، فأشار عليه يزيد بقتله،فقال له معاوية أف لك أنا أرشحك للخلافة وأنت تشير بهذا الرأى ؟وإن عملت به حققت عليها قوله ثم حج معاوية فلما دخل عليه الناس أمر بالعطاء لهم وفرق فيهم الصلات وفيهم أبو دهبل فلما أراد الخروج استعاده بعد خروج الناس وقال له : مالى رأيت أبا خالد ـ يعنى يزيد ابنه متغيظاً عليك بأبيات لا تزال تأتى منك الى حصاننا؟فاسقط فى يده وأفكرّ فقال له معاوية : أما أنا فلا بأس عليك منى . ولكن أحذّرك يزيد فله

سورة الشباب والملك. ثم قال له هل لك زوجة ؟قال : لا .قال : فأى بنات عمك أحب اليك أزوجكها ؟قال : فلانة . فما برح حتى زوجه اياها وساق مهرها من ماله . فحلف أبو دهبل ألا يذكر عاتكة فى شعره أبداً : وله مع عاتكة هذه أخبار ليس هذا موضعها .

قال الحجاج : سلطان تخافه الرعية خير من سلطان يخافهم .

قال مروان بن الحكم لابنه يوصيه : آثر الحق ، وحصّن مملكتك بالعدل، فانه سورها المنيع الذى لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار ولا يهدمه منجنيق.

وروى أن عامل عمر بن عبد العزيز على حمص كتب اليه أن سورها قد استهدم فان رأي أمير المؤمنين أن يأذن لى فى عمارته ، فكتب اليه عمر : أما بعد ، فحصّنها بالعدل والسلام .

تغدى سليمان بن عبد الملك عند يزيد بن المهلب ، فقيل له صف لنا أحسن شيء كان فى منزله . فقال : رأيت غلمانه يخدمون بالاشارة دون القول .

أحضر الرشيد رجلا ليوليه القضاء ، فقال : إنى لا أحسن القضاء ولا أنا فقيه . فقال الرشيد : فيك ثلاث خلال ، لك شرف والشرف يمنع صاحبه من الدناءة ، ولك حلم يمنعك من العجلة ومن لم يعجل قل خطؤه ، وأنت رجل تشاور فى أمرك ومن شاور كثر صوابه . وأما الفقه فسيضم اليك من تفقه به . فوُلى فما وجدوا فيه مطعناً .

كان سبب خروج المعتصم الى (سُرّ من رأى)[1] أن غلمانه الأتراك

---

(١) اسم بلد

كثروا ببغداد فتولعوا بحرم الناس وأولادهم ، فاجتمع اليه جماعة منهم وقالوا : يا أمير المؤمنين ما أحد أحب الينا مجاورة منك ، لأنك الامام والمحامى عن الدين ، وقد أفرط علينا أمر غلمانك ، فاما منعتهم منا وإما نقلتهم عنا . فقال : نقلهم لايكون الا بنقلتى ولكنى أفتقدهم وأزيل ماشكوتم منه . فنظر فاذا الأمر قد عظم وزاد ، وخاف أن تقع بينهم حرب ، وعاودوه بالشكوي وقالوا : ان قدرت على نصفتنا والا فتحول عنا . فقال : أتحول وكرامة . ورحل الى (سُرّ من رأى) واتخذها داراً .

لما أقطع المعتصم أشناس ضياع الحسن بن سهل ، وجّه الحسن بقبالاتها[1] الى اشناس وكتب اليه : قد عرفت رأى أمير المؤمنين فى إخلاصك بهذه الضياع ، وأحببت ألا يعترض على عقبك عقبى ، فأنفذت اليك قبالاتها ، معتداً فى قبولكها اسباغ النعمة على وادخار الشكر لدى ، ومتقرباً به الى سيدى أمير المؤمنين ، فرأيك فى الامتنان علىّ بقبولها موفّق ان شاء الله . فلما قرأ الكتاب أنفذه الى المعتصم ، فوقع عليه : ضيم فصبر ، وسُلبَ فعَذَر ، فليقابل بالشكر على صبره ، وبالاحسان على عُذره ، وترد عليه ضياعه ويرفع عنه خراجه ، ولا أؤامر فيه ان شاء الله تعالى .

وكان المعتصم يقول : الفضل بن مروان عصى الله تعالى وأطاعنى ، فسلطنى الله عليه .

وقيل ما رؤى أشد تيقظا فى حرب من المعتصم . كانت الأخبار ترد عليه من أرض بابل الى (سُرّ من رأى) فى ثلاثة أيام ، على خيل عتاق مُضمَّرة ، قد أقام على كل فرسخين فرسين . واحتاج الناس فى حصار عَمّوريّة الى ماء ،

(١) القبالة : هي المكتوب الذى يلتزم به الانسان أى عمل أو دين

فمد لهم حياضاً من أُدُمٍ [١] عشرة أميال . ولما أدخل عليه المازيار ، وكان شديد الغيظ عليه ، قيل له : لاتعجّل عليه فان عنده أمو الا جمة ، فأنشد بيتاً لأبي تمام :

إن الاسود ، أسودَ الغاب ، همتها يوم الكريهة ، في المسلوب لا السَّلَبِ

قال ابراهيم بن المدبر ، قال لى المتوكل : اذا خرج توقيعى اليك بما فيه مصلحة للناس ورفق بالرعية ، فأنفذه ولا تراجعنى فيه . واذا خرج اليك بما فيه حيف على الرعية ، فراجعنى فان قلبى بيد الله عز وجل .

كتب الاسكندر الى أرسطاطاليس ، يعلمه بما افتتح من البلاد ، ويُعَجِّبُهُ من قبة ذهب وجدها فى بلاد الهند ، فأجاب : إني رأيتك تتعجب من قبة عملها الآدميون ، وتدع التعجب من هذه القبة المرفوعة فوقك ، وما زينت به من الكواكب وأنوار الليل والنهار : وأما البلدان فليكن ملكك فيها بالتودد الى أهلها ، لا كقهر الراعى غنمه بالعصا ، فانك فى طاعة المودة احمد بدءاً وعاقبة من طاعة القهر والاستطالة . حُدِّث به المأمون فقال : لقد حثَّ على التودد فأحسن ، ولقد أدبنا الله قبل معرفتنا بحكمة أرسطاطاليس : (ولو كنتَ فظًّا غليظ القلب لانفضوا من حولك)

قال المأمون للسيد بن أنس : أأنت السيد ؟ فقال : أمير المؤمنين السيد ، وأنا ابن أنس .

وقال الحجاج للمهلب ، وهو يماشيه : أنا أطول أم أنت ؟ قال الأمير أطول وأنا أبسط قامة .

---

(١) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ

قال محمد بن عبيد الله بن يحيى بن خاقان . بعثنى أبى الى المعتضد فى شىء من الأمور ، فقال لى : اجلس ، فاستعظمت ذلك فقلت : إنه لايجوز . فقال : يامحمد أدبك فى القبول منى خير لك من أدبك فى قيامك .

ومن أدب العلماء ، قال بعض أصحاب أبى حنيفة ، قال لى أبو حنيفة : لاتسألنى عن أمر الدين وأنا ماش ، ولا تسألنى وأنا أحدث الناس ، ولا تسألنى وأنا قائم ، ولا تسألنى وأنا متكىء ، فان هـذه أماكن لايجمع فيها عقل الرجل . قال : فخرج يوما وتبعته من حرصى أسائله ومعى دفتر وأنا أمشى فى الطريق ، فلما خلوت عقلت ما أقول ، فلما كان من الغد ، واجتمع اليه أصحابه ، سألته عن تلك المسائل ، فغيّر الجواب ، فأعلمته ذلك . قال : ألم أنهك عن السؤال وعن الشهادات فى دين الله الا وقت جمام العقول ؟

وكان أحمد بن طولون شديد الاهتمام بأمر رعيته ، وكان يجلس فى الليل فى قبة عالية من داره ، يستمع ويراعى أحوال مصر ، فبينا هو ليلة اذ سمع صياح كلب يصيح صياحا شديداً ، فدعا بغلمانه وقال : اسمعوا . فقالوا : نسمع صياح كلب . فقال : أنظروا أين . فلم يزالوا ينظرون حتى قالوا فى ناحية كذا وكذا . فقال علىّ بالكلب الساعة وسببه ، فمضى الغلمان فلم يزالوا ينظرون الموضع حتى عرفوا الكلب فأخذوه ، واذا برجل نائم فى الظلام ومعه سكين ، واذا قوم يصيحون ، فقالوا لهم : ماخبركم ؟ فخرج اليهم شيخ فقال : هذا الرجل يتعرض ببعض حرمى . فأخذوا الكلب والرجل والشيخ ، وجاءوا بهم الى أحمد بن طولون ، فقال اضربوا الكلب ، فضرب فصاح ، فقال : هو هو . وأمر بالرجل فغُرِّق وانصرف الشيخ الى منزله .

قال عبد الملك بن عمر الليثى : بينما نحن بالمسجد الجامع بالكوفة ،

وأهل الكوفة يومئذ ذوو حال حسنة ، يخرج الرجل منهم فى العشرة والعشرين من مواليه، أتانا آت فقال: هذا الحجاج قد قدم أميراً على أهل العراق ، فاذا به قد دخل المسجد مُعْتَمّاً بعمامته ، قد غطى بها أكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، متنكباً قوساً يؤم المنبر ، فقام الناس نحوه حتى صعده ، ومكث ساعةً لايتكلم . فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية حيث تستعمل مثل هذا على العراق ، حتى قال عمير بن ضابىء البرجمى ألا أحصبه لكم ! فقالوا : أمهل حتى ننظر . فلما رأى عيون الناس اليه ، حسر اللثام عن فيه ، ونهض فقال :

أنا ابنُ جلا وطلاع الثنايا متى أضع العمامة تعرفونى

وقال: يا أهل الكوفة ، إنى لأرى رؤساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها . كأني أنظر الى الدماء بين العمائم واللحى .

هذا أوان الشدّ فاشتدى زِيَمْ قد لفها الليل بسواقٍ حُطَمْ
ليس براعى إبل ولا غنم ولا بجزّار على ظهر وضَم

قد لفها الليل بعصلبىّ مهاجر ليس بأعرابى
أبيض خرّاج من الدّوِى

قد شمّرت عن ساقها فشُدّوا وجدّت الحرب بكم فجِدّوا
والقوسُ فيها وترٌ عُرُدُّ مثل ذراع البكر أو أشد

إنى والله يا أهل العراق: ما يُقعقَع لى بالشنان، ولا يُغمز جانبى كتغماز البنان. ولقد فُورت عن ذكاء، وفُتشت عن تجربة، وان أمير المؤمنين نثر كنانته فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدنى أمرها عوداً وأصلبها مَكسراً فرماكم بى، لأنكم

طالما أوضعتم فى الفتنة واضطجعتم فى مراقد الضلال. والله لأحزمنكم حزم السلمة، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل، فانكم « كأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف ». وإنى والله ما أقول إلا وفيت، ولا أهم إلا مضيت، ولا أحلق الا فريت، وان أمير المؤمنين أمرنى باعطائكم وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفره، وانى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه ثلاثة أيام إلا ضربت عنقه. يا غلام، اقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين. فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله عبد الملك، أمير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين. سلام عليكم. فلم يقل أحد شيئاً. وقال الحجاج اكفف ياغلام. ثم أقبل على الناس فقال: أيسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردوا عليه شيئاً؟ أهذا أدب ابن نهية؟ أما والله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن الطريق. اقرأ ياغلام كتاب أمير المؤمنين فلما بلغ الى قوله سلام عليكم، لم يبق أحد فى المسجد إلا قال: وعلى أمير المؤمنين السلام. ثم نزل فوضع للناس أعطياتهم، فجعلوا يأخذون حتى أتاه شيخ يرعش كِبَراً، فقال: أيها الامير إنى من الضعف على ما ترى، ولى ابن هو أقوى على الأسفار منى أفتقبله بدلا؟ فقال الحجاج: نفعل ياشيخ. فلما ولى قال له قائل: أتدري من هذا أيها الامير؟ قال لا. قال: هذا عمير بن ضابىء البرجمى الذى يقول ابوه:

هممت ولم أفعل وكدت وليتنى ... تركت على عثمان تبكى حلائله

ودخل هذا الشيخ على عثمان مقتولا فوطىء بطنه فكسر ضلعين من أضلاعه. فقال: رُدُّوه. فلما رُدَّ، قال الحجاج له: أيها الشيخ هلا بعثت

الى أمير المؤمنين بدلا يوم الدار . إن فى قتلك أيها الشيخ لصلاحا للمسلمين. ياحَرَسِىّ اضربا عُنُقَه ، فجعل الرجل يضيق عليه أمره فيأمر وليه أن يلحقه بزاده . ففى ذلك يقول عبد الله بن الزبير الأسدى :

تَجهَّزْ فاما أن تزور ابن ضابئٍ عُميراً وإما أن تزور المهلبا

تفسير كلمات عربية من هذا الخبر

أراد بابن جلا العقل فحكى فلذلك لم يصرفه . والبيت لسحيم بن وائل. طلاع الثنايا : جَلِد يطلع الثنايا فى ارتفاعها وصعوبتها . حُطَم : لا يُبقى من السير شيئاً وكذلك الذى يأتى على الزاد فيأكله حُطَم . والنار التى لا تُبقى حُطَمة . والوَضم يوضع عليه اللحم من صخر أو خشب . والعصلبى الشديد. والدوى كل غمّاء وشديدة ويقال للصحراء دَوِيّة وهى التى لا تكاد تنقضى، وهى منسوبة الى الدَّوِّ وهو الصحراء الملساء التى لا أمارة بها . والداوية المتسعة التى تسمع لها دويا بالليل وانما ذلك الدوى من أخفاف الأبل ، تفسح أصواتها فيها وتقول جهلة الأعراب ذاك عزيف الجن . والعرُدُّ: الشديد ويقال فى معناه عُرُندٌ . والذكاء ها هنا تمام السن وهو فى غير هذا حدة القلب .

ومن سياسة زياد المستحسنة ، أنه ألزم كل قبيلة بمن يخرج من الخوارج منهم ، وأخذهم بهم . فكانت كل قبيلة اذا أحست بخارجية منها شدتهم وأتت بهم زيادا . وله أخرى فى الخوارج . أخرجوا معهم امرأة ، فظفر بها فقتلها ثم عرّاها . فلم يخرج النساء بعد على زياد، وَكُنَّ اذا دُعين بعد الى الخروج يَقُلنَ : لولا التعرية لسارعنا . وكنّ بعد زياد يخرجن مع الخوارج ، فيحاربن ويبارزن الرجال .

ووصى عمرو معاوية بالسياسة فقال: لا يكون من شيء آثر عندك من أمر رعيتك، وتكون له أشد تفقداً منك لخصاصة الكريم أن تعمل في سدها، ولطغيان اللئيم أن تقمعه. واستوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فان الكريم يصول اذا جاع. واللئيم يصول اذا شبع.

كان الرشيد أخذ ضيعة من صالح صاحب المصلى ودفعها الى أم جعفر، فلما ولي الأمين سأله الفضل بن الربيع ردّها على صالح. فقال: أنا أعوضه ولا أظلم أبي ولا أعق أمي.

وقع المأمون في قصة متظلم من أبي عيسى بن الرشيد: فاذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون:

قال بعض صحابة أبي العباس السفاح: غضب أبو العباس على بعض أصحابه فأبعده، فذكره ليلةً من الليالي فقلت: لو رآه أعدى خلق الله له لرحمه. قال: ولم ذاك؟ قلت: لغضب أمير المؤمنين عليه. قال: ما به من الذنب ما تبلغ به العقوبة لهذا المبلغ. قلت: فمُنَّ عليه يا أمير المؤمنين برضاك. قال: ما هذا وقت ذاك. قلت إنك يا أمير المؤمنين لما صَغَّرت ذنبه طمعت في رضاك. قال: إنه من لم يكن بين غضبه ورضاه مدة طويلة لم يُحسن أن يغضب ولا يرضى.

قال علي بن مخلد: كنت واقفاً على رأس المنصور وأنا غلام، فما رأيت ملكاً ولا سوقة كان أفسح منه أخلاقاً، ولا أقلّ شتماً وضرباً لِملك يمين. وكان ربما دعا الغلام من غلمانه لبعض ما يحتاج اليه فيسمع نداءه فلا يجيبه، قال: فسمعته يوماً يقول للربيع: ما أدري كيف أصلح غلماني وخدمي؟ أُصوِّتُ الواحد منهم أصواتاً فلا يجيبني، وأنا أعلم أنه قد سمع، فقال الربيع

ياأمير المؤمنين قد لنتَ لهم غاية اللين ، ولو غلظت عليهم بعض الغلظة استقاموا . فقال أبغني سوطاً ومسماراً فأتاه بهما ، فعلق السَّوْط تجاه مجلسه فصار اذا صاح بالخادم وافاه عشرون فى لحظة . فقال قاتل الله القائل :

العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامه .

قال الفضل بن يحيى لرجل استبطأ عِدَة الرشيد ، وكان من أهل بيته : إنما شغل عنك أمير المؤمنين حقوق أهل الطاعة دونك ، ولو فرغ منهم اليك لم يؤثر من دونك عليك . فقام أبوه يحيى فقبل رأسه .

كان المعتضد بالله من ساسة الخلفاء وذوي التدبير ، وسمى السفاح الثانى لأنه جَدّدَ الدولة العباسية بعد دروسها . ولى بعد المعتمد عمه وكان مستضعفاً حتى أنه طلب ما يراعى به مغنية عنده فلم يعط ، وقصرت يده عنه فقال :

أليس من العجائب أن مثلى يرى ما قلَّ ممتنعاً عليه

وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شىء فى يديه

وكان تؤخذ جواريه غصباً فلا يقدر على الامتناع . وليس هذا موضع أخباره . فلما ولى المعتضد لم يجد فى بيت المال غير سبعة وعشرين درهما زائفة . ووجد الدنيا خرابا ، فعمرها بالعدل حتى صار دخل المملكة يزيد على الخرج فى كل سنة ألف ألف دينار ، بعد الخرج والنفقات على التمام والكمال ، واستيفاء الجيوش وسائر المرتزقة جاريهم على الادرار من غير مطالبة أو إذكار بسببه . وكان هذا الفاضل فى بيت مال الخاصة ، لا ينفق منه شىء البتة ، ولا يُحتاج اليه فى وجه من الوجوه . وأخر النوروز الى أحد عشر يوما من حزيران حيث تتكامل جميع الغلات الشتوية والثمار ، فيؤخذ الخراج فى أوانه من غير اضرار بتقديمه وأمر بالزيادة فى المسجد الجامع بمدينة أبى جعفر وأمر بتسهيل عقبة حلوان

وقال . هذا طريق الملك . فسُهلت الى الموضع المعروف بدهليزان ، وأُنفق عليها عشرين ألف دينار . وأمر برد المواريث على ذوى الارحام . ولما أراد بناء قصره بالشماسية بأعلى بغداذ ، استزاد فى الذّرع بعد أن فرغ من تقدير جميع ما أراده للقصر . فسئل عما يريد ذلك له ، فذكر أنه يريده ليبنى فيه دوراً ومساكن ومقاصير ، يرتب فى كل موضع منها رؤساء كل صناعة ومذهب ، من كل مذاهب العلوم النظرية والعملية ، ويجري عليهم الأرزاق السنية ، ليقصد كل من اختار علماً أو صناعة ، رئيس ما يختاره ، فيأخذ عنه ولو مدّ له فى العمر حتى يفعل هذا ، لظهر فضل هذه الأمة على سائر الأمم . ولكن حالت المنية دون الامنية ولله أمر هو بالغه ، وهو أعرف بمصالح عباده

وكان عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، من العقلاء ورجال التدبير . قال على بن عيسى بن داود بن الجراح : دخلنا إليه لما فتح هو وبدر المشرق ، وفتح المعتضد هو والقسمُ بن عبيد الله معه ديار بكر . وذلك فى آخر سنة ست وثمانين ومائتين . وكنت أنا وعمى محمد بن داود والقسم . فجعل القسم ونحن بعده نهنئ عبيدالله باستمرار الصلاح فى جميع البلاد . وسكون النفوس ، وسقوط جميع الأعداء فى أقطار المملكة ، قال وعبيدالله يسمع وهو مطرق . ثم رفع طرفه وجعل ينظر الى القسم ابنه نظر متعجب ثم قال : الساعة والله يا بنى وقعنا نحن فى الشغل والخوف . لأن من عادة هؤلاء القوم ـ يعنى الخلفاء ـ اذا خلص لهم الملك ، انتظم الفكر فى أقرب الناس منهم فى الاقدام على الايقاع بهم وهم الوزراء . وحق الوزير أبداً أن يشغل قلب سلطانه بالشئ بعد الشئ يلقيه اليه مما يَحْذَره ويخشى سوء عواقبه . فتدعوه الضرورة عند ذلك الى اتصال الفكر فيه والاعتماد على

وزيره فى تلافيه . فاذا خلا من ذلك صرف همه وفكره الى الأقرب فالأقرب منه ، فلم تؤمن بادرته ، ولم يسلم من معرته وتغيير أمره وملالته. إما متجراً باتصال خدمته وطول معاملته وإما طمعاً فى ماله وحاله وشرهاً الى نعمته . قال : فورد على القسم من قول أبيه وعلينا ماعلمنا أنه قال الحق مع ممارسته للأمور ، وماشوهد وما نُقل من الأخبار فى ذلك .

لما أسرف الحجاج فى القتل بالعراق ، واعطاء أصحابه الأموال ، كتب اليه عبدالملك بن مروان : أما بعد قد بلغنى سرفك فى الدماء ، وتبذيرك الأموال، ولا أحتمل هاتين لأحد من الناس ، وقد حكمت عليك فى الدم بالقَوَد فى العمد ، والدِّية فى الخطأ ، وان ترد الاموال الى مواضعها. فانما المال مال الله ونحن أمناؤه ، وسيان منع حق واعطاء باطل. فلا يؤمننّك الا الطاعة، ولا يخيفنك الا المعصية . وكتب فى أسفل كتابه يقول :

اذا انت لم تترك أموراً كرهتها ... وتطلب رضاى بالذى انت طالبه
وتخشى الدى يخشاه مثلك هاربا ... الى الله منه ضيع الدَّرَّ حالبه
وإن ترَ منى غفلة قُرشية ... فيا ربما قد غَصَّ بالماء شاربه
وان ترَ منى وثبة أموية ... فهذا وهذا كله أنا صاحبه
فلا تعدُ مايأتيك منى وان تعد ... تقم فاعلمن يوما عليك نوادبه

ذكر أن فاطمة بنت الحسين بن على عليهما السلام ، أعطت ولدها من الحسن بن الحسن ماورثته منه ، وأعطت ولدها من عبد الله بن عمرو ابن عثمان موروثها منه ، فوجد ولد الحسن بن الحسن فى أنفسهم ، لأن

ماورثت من عبد الله بن عمرو كان أكثر ، فقالت : يابنى ، إنى كرهت أن يرى أحدكم شيئا من مال أبيه بيد أخيه ، فيجد من ذلك فى نفسه . فلذلك فعلت مافعلت

الفصل السادس

(نوادر هذا الباب)

هذا باب جدٍّ ، لا مدخل للنوادر فيه ، لكنني تكلفت منه ما شرطته من أول الكتاب من اتباع كل باب بنوادره . ووجدت ذلك يتهيأ فيما كان أصله جَدًّا فعُدل به الى الهزل ، أو أصله هزلا فاستعمل فيه الأدب والسياسة ، أو ماحصل الاشتراك بينهما فيه فَحَسُن اضافته اليه من جهة الاشتراك . واقتصرت منه على ما لا تليق الحال بالزيادة عليه .

بلغ معاوية أن ابنته امتنعت على ابن عامر فى الاقتضاض ، فخرج اليها يَتوَزَّن فى مشيته ، وفى يده مخصرة ، فجلس وجعل ينكت فى الأرض ويقول:

من الخفِراتِ البيض أما حرَامُها فصعبٌ وأما حِلّها فذلول

وخرج ، ودخل ابن عامر فلم تمتنع عليه .

وقال معاوية : العيال أرضة المال

قال أبو الزناد : كنت كاتبا لعمر بن عبد العزيز ، وكان يكتب الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فى المظالم ، فيراجعه فيها ، فكتب اليه : يخيل الى أني لو كتبت اليك أن تعطى رجلا شاةً ، لكتبت إلى أضأن أم ماعز ؟ ولو كتبت اليك باحداهما ، لكتبت أذكر أم أنثى ؟ ولو كتبت باحداهما . لكتبت أصغير أم كبير ؟ فاذا أتاك كتابي هذا فلا تراجعنى فيها .

وكتب أبو جعفر الى سَلْم ، يأمره بهدم دور من خرج مع ابراهيم ابن عبد الله بن الحسن وعقر نخلهم ، فكتب اليه : بأي ذلك نبدأ بالدور

أم بالنخل ؟ فكتب اليه أبو جعفر : أما بعد ، فانى لو أمرتك بافساد ثمرهم ، لكتبت تستأذن بأية تبدأ بالبرنىّ أو السهريز ؟ وعزله ، وولىّ محمد بن سليمان مكانه .

قال الوليد بن يزيد لابن ميّادة : من تركت عند نسائك؟ قال: رقيبين لايخالفانى طرفة عين ، الجوع والعرى . فهذا الدوي قد ساس النساء بما يليق بهن ، إما اضطراراً أو تدبيراً أو رأيا .

عاتب المنصور أصحابه على أن أبق[1] غلام له ولم يطلبوه ولم يخبروه قبل هربه بما عزم عليه . ووبخهم ونسبهم الى ترك النصيحة له . فقال لهم ابن عباس المنتونى: ولّونى جوابه، قالوا: أنت وذاك فقال للرسول: تبلغه كما أبلغتنا؟ قال : نعم قال اقرأ على أمير المؤمنين السلام وقل له : إنك اخترتنا من بين عشائرنا وبلداننا، فظننّا أردتنا لنكون جلساءك، والمجيبين للوفود اذا قدموا عليك ، والخارجين لرتق الفتوق اذا انفتقت عليك ، فأما إذا أردتنا لمن يأبق من غلمانك ، فَبُزَيْعٌ غلامك يريد أن يأبق فاستوثق منه .

قال العلاء بن أيوب : ماتكلم الفضل بن سهل قط بكلام فيه جفاء الا مرةً ، فانه ذكر الفضل بن الربيع ، فقال : مايريد منا ؟ ألم نوجه اليه عبد الله بن أبى سَمَر . يريد أنه كان فحله .

لقى أبو العيناء الفتح بن خاقان فى حاجة فوعده ، ثم لقيه فوعده ، فلما كان فى الثالثة ألفاه على حال ضجر . فقال له الفتح : أما علمت أنه من

---

(١) أبق العبد : اذا هرب من غير خوف ولا كد عمل

طالب السلطان احتاج الى ثلاث خلال . قال: وما هن أعز الله الأمير ؟ قال : عقل وصبر ومال . فقال أبو العيناء : لو كان لى عقل لعقلت عن الله تعالى أمره ونهيه . ولو كان لى صبر لصبرت منتظراً رزقى أن يأتينى . ولو كان لى مال لاستغنيت به عن تأميل الأمير والوقوف ببابه .

كان ركن الدولة ، ابو على الحسن بن بويه ، ضعيف السياسة ، على خير فيه وكرم طبع . فخرجت له بغال للعلف ، فقطع عليها اللصوص وأخذوها فلما اخبر بالحال قال : كم كانت البغال ؟ فقيل : ستة قال : واللصوص ؟ قيل سبعة فقال : الآن يختلفون ، كان ينبغى ان تكون البغال سبعة حتى تصح القسمة بينهم .

قال بعض الملوك لوزيره ، وأراد محنته : ما خير ما يُرزقه العبد ؟ قال: عقل يعيش به . قال : فان عدمه ؟ قال : أدب يتحلى به . قال : فان عدمه ؟ قال : حال يستره . قال : فان عدمه ؟ قال : صاعقة تحرقه ، فنريح منه العباد والبلاد .

قيل لما صرفت اليمانية من أهل مُرَّة الماء عن أهل دمشق ، ووجهوه الى الصحاري ، كتب اليهم أبو الهيذام : الى بنى أمتها أهل مُرَّة ، لِيُمَسينى الماء أو لتُصبِحَنَّكم الخيل . قال : فوافاهم الماء قبل أن يُعتِّموا . قال أبو الهيذام : الصدق يُنبى عنك لا الوعيد .

وكان أعرابى باليمانية واليا على الماء ، فاذا اختصم اليه اثنان وأشكل عليه القضاء ، حبسهما جميعا حتى يصطلحا . وقال : دواء اللَّبَس الحبس .

شكت إعرابية زوجها الى صواحب لها ، فقلن : طلّقيه . فقالت : اشهدن أنه طالق ثلاثا . فاختصموا الى والى الماء ، فتكلمت فقال لها : أيها

أم فلان : لاتجورى فنحاربك ، إلزمى الطريق المهيع[1] الى المأمون، ودعى بُنَيّاتَ الطريق ، كيف قلت ؟ قالت : قلت : هو طالق ثلاثا . ففكر الوالى ساعة ثم قال : أراكِ تحلّينَ له ، ولا أراه يحلّ لك .

تظلم قوم من قاضى جبل ، وذكروا أنه يَحُضُّ رؤس الخصوم، فوقع فى قصتهم : شنقٌ ان شاء الله

مدح بعض الشعراء محمد بن عبدون صاحب الشرقية ، فقال له : أمّا ان أعطيك شيئا من مالى فلا ، ولكن اذهب فاجن جناية حتى لا آخذك بها .

(١) المهيع : السوى

﴿ صورة ﴾

(ما جاء فى نهاية القسم الثانى من التذكرة)

﴿ * * * * ﴾

تم الجزء الثانى بعون الله وتوفيقه صبيحة يوم الثلاثاء ثامن عشر شهر ذى حجة الحرام سنة ثمان وستين وثمانمائة على يد العبد الفقير المعترف بالتقصير محمد بن اركماس الطويل اليشبكى الحنفى عامله الله بلطفه الخفى وغفر له ولوالديه ولمن دعا لهما بالرحمة والمغفرة انه على كل شئ قدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم كثيراً ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم وحسبنا الله ونعم الوكيل

ابن حمدون ،ابو المعالى محمد بن الحس
تذكرة ابن حمدون، السياسة والاداب ال
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01042341